

ادخلوا في سرّ الإفخارستيا

إصنعوا هذا لذكري

مقدمة

الإفخارستيا، سرّ الإيمان

"إنّ سرّ الإيمان لعظيم". هذا السرّ هو واقع يتجاوز إدراكنا، ويقع في قلب الكنيسة ويرتبط بسرّ الصليب المقدس. الإفخارستيا هي وليمة الرب، الوليمة الفصحية وذكرى السرّ الفصحي. والإفخارستيا، باعتبارها هبة نعمة، هي مصدر حياة الكنيسة وأوج هذه الحياة.

أن نعيش الإفخارستيا يعني أن نعيش فعل الشكر وهو ما عاشه المسيح في تقدمة مستمرة لذاته. حين نتناول الإفخارستيا، يأتي المسيح ليسكن فينا ونتحد من خلالها بإخوتنا.

نعيش الإفخارستيا ونعيش من الإفخارستيا: هذا ما سنفعله هذه السنة من خلال دراستنا للمواضيع القادمة. وكما تكون الإفادة كاملة، يجب دراسة كل فصل بانتظام، وقراءته عدّة مرات وعدم انتظار قدوم موعد الاجتماع لتحضيره.

يحتوي الكتاب على ستة فصول لثمانية اجتماعات سنوية، وهذا يسمح بتخصيص اجتماعين للفصول المكثفة كالفصلين الأول والرابع. حينها يمكن استخدام صلوات الفصلين السابع والثامن لأجل الاجتماع الثاني للفصل ذاته.

نقترح عليكم في كل شهر مسارين لواجب المجالسة: يرتبط الأول منهما بشكل أو ثقل مع الموضوع، ويركز الثاني بشكل ملموس على ممارستنا لسرّ الإفخارستيا.

توطئة

تجدد الإفخارستيا

قد تثير فيكم هذه الصفحات الدهشة، فهي، والحق يقال، لا تُولفُ بحدّ ذاتها دراسةً لاهوتيّة، ولو مختصرة، حول سرّ الإفخارستيا، بل عليكم قراءتها بنفس النهج الذي كُتبت فيه وأُلفت، أي بمثابة تعليمٍ دينيٍّ يجهد بلمساتٍ متلاحقة ليقودكم صوب جوهر السرّ، عطية الله، التي ندعوها الإفخارستيا.

وبمتابعتكم لها بانتباه سنكتشفون أنّها تحمل دلالتين أساسيتين: أولهما كلمة الله المنشورة في نصوص العهدين القديم والجديد، بدءاً بالخروج وانتهاءً بآلام يسوع، وثانيتهما الليتurgiّة، أي الأفعال والعلامات والكلمات التي تُولفُ فعل الإفخارستيا على نحو ما تحتل به الكنيسة وتتقدّم به إلى المؤمنين.

وينتمي كاتب هذه الصفحات، الأب «جاك تُرك»، إلى تقليدٍ قديمٍ يتحدّر من آباء الكنيسة، تقليد المعلمين المستاغوجيين، والمستاغوجيّة هي ذلك التعليم المتين الذي لا يسعى إلى تفسير السرّ، بل إلى مقاربتّه واستدعائه والتأمّل فيه، فيتغذّى منه ويكتشف منابعه.

القصد من هذه الفصول إذاً هو قيادتنا إلى منابع الإفخارستيا. كيف وُلد الإيمان بها لدى الجماعات المسيحيّة الأولى؟ وإلى أيّ من أفعال يسوع وكلماته ترجع هذه الولادة؟ ما هو عمل التكوين الأساس لفعل الإفخارستيا هذا الذي لم يضح مركزياً في حياة الكنيسة إلاّ لكونه جزءاً لا يتجزأ من الفعل المركزي الذي قام به يسوع في **نبوته** وفي عيشه آلامه وموته بشكل عطيةٍ كاملة وقطعية؟

والأب جاك تُرك إذ يستند في سعيه هذا على الإرث اليهودي في العشاء الفصحي أو على تفسير يوحنا لعرس قانا الجليل أو لمعجزة تكثير الأربعة، فهو يستحضر تكوين الإفخارستيا هذا، لا من خلال عناصر التأليف اللاهوتي، ولكن عبر نوع من التعليم الأولي، الذي يجذب الانتباه إلى الفعل أحياناً، وإلى الكلمة أحياناً، وإلى تتابع الكلمات والوقائع أحياناً أخرى.

وأهميّة هذا النهج أنّ لا مفرّ فيه من استشفاف جديد الإفخارستيا، وطابعها غير المسبوق على الإطلاق. ونحن إذ أصبحنا أحياناً من المعتادين على سرّ الإيمان الكبير هذا، يجدر بنا أن نرى بذلك ظهور الإفخارستيا لا كبناءٍ من صنع الإنسان، بل بمثابة خليفةٍ حقّة تنبع من سرّ المسيح، عُهد بها إلى كنيسته وأصبحت صميم رسالتها وقمّتها.

ولنا أن نأخذ على الكاتب في بعض الأماكن بعض المقاربات اللغويّة والاختصار في التعبير اللذين لا يأخذان في عين الاعتبار الحقائق قيد الطرح. ولكن يبقى أفضل ما في هذه الصفحات، بما لا يقبل الجدل، طابعها المستاغوجي، أي أنّنا لن نحظى بإدراك سرّية السرّ إلاّ حين نشارك في ليترجية الإفخارستيا. ولم يكن نهج آباء الكنيسة أمبروزيوس وأوغسطينس وكثير غيرهما بمختلف، فتفسيرهم اللاهوتي للإفخارستيا موجوداً في عظاتهم. وذلك لأننا فقط عندما نصغي ونبصر ونشارك في الجماعة الإفخارستيا نستطيع الدخول في سرّ الإيمان وفهمه لدى عيشنا له.

وأنا أمل أن يُصار إلى فهم هذه الصفحات بمثابة دعوةٍ وتشجيعٍ لتجذير لاهوت الإفخارستيا في فعل الكنيسة التي تحتفل كجزءٍ لا يتجزأ عن ربّها معه وتلتزم في خدمة

الإنسان على طريقتها، طريقة الخادم الإلهي الذي يمنح نفسه بدون أي شروط.

† كلود داجنس Claude Dagens

مطران أنغولم

٢٢ كانون الأول ١٩٩٩

إنّ فادينا، في العشاء الأخير، وفي الليلة التي أُسلم فيها، كرّس الفداء
الأفخارستيّ بجسده وبدمه لكيّ يديم فداء الصليب على مرّ الأجيال، حتى
مجيئه، ولكي يعهد إلى الكنيسة، عروسه الحبيبة، بذكرى موته وقيامته: سرّ
الحبّ، علامة الوحدة، أصل المحبّة، وليمة الفصح التي فيها نتناول المسيح
والروح، فننال ملء النعمة، وعربون المجد الآتي الموهوب لنا.

صلاة مبنية على الليتورجية المقدسة،

المجمع الفاتيكاني الثاني (رقم ٤٧)

الفصل الأول

أيام الفصح المقدّسة الثلاثة

دربٌ للتأمل

للإعداد مسبقاً:

الهدف من هذا الفصل هو المساعدة على الربط ما بين الإفخارستيا وأسبوع الآلام. ولذلك، لكم أن تعدّوا جدولاً بثلاثة أعمدة:

- في الأول، تدوّنون وقائع الآلام

- وفي الثالث، احتفالات الأسبوع الأخير

- أمّا في الوسط، فتدوّنون بما يقابل ما يحاذيه جوانب الإفخارستيا التي تذكّر أو تحتفل بهذه أو تلك من لحظات الآلام والأسبوع الأخير.

يمكنكم أن تستعينوا بذاكرتكم (آخر أسبوع آلام عشتموه) وكتاب القدّاس، أقلّه لكي تملأوا العمود الثالث، ولا تنسوا ما هو أساسي.

ثم باشرُوا قراءة هذا الفصل الأول، وفيما تقرؤون، أكملوا ما تكتشفون على الجدول بكتابته بلونٍ مختلف. إذا كنتم تقومون بهذا العمل في إطارٍ جماعيّ، فيمكنكم أن تدوّنوا الجدول على لوحةٍ مرئيةٍ من الجميع.

إنّ الصلة ما بين الإفخارستيا ووقائع الآلام وثيقة جداً، إذ لا يمكننا إدراك كون الإفخارستيا تأويلاً للسرّ الفصحيّ بدون أن نخوض في أيام الفصح الثلاثة المقدّسة. فالكنيسة ترى دائماً في هذه الأيام منبعاً للنعم، وتحتفل بسرّ الخلاص الذي أدرك كماله في المفهوم الخصوصيّ لأعياد الفصح اليهوديّ.

لقد دوّنت الوقائع التي حدثت في تلك السنة، في عهد بيلاطس البنطيّ، في كتب التاريخ. وهي في مجملها لا تشير إلّا إلى واقعةٍ وحيدة، وهي موت المسيح يسوع وقيامته. وتساعدنا طريقة التقويم اليهوديّ على فهم كيفية توزّع هذه الوقائع على أيّام ثلاثة، وتثبت أن احتفالنا بالقيامة هو فعلاً في اليوم الثالث؛ فيوم الجمعة - اليوم الأوّل - يبدأ اعتباراً من مساء الخميس؛ واليوم التالي هو السبت - اليوم الثاني - سبت اليهود؛ أمّا آخرها، يوم الأحد، أحدنا، أوّل أيام الأسبوع، فهو اليوم الثالث، يوم القيامة. تلك هي الأيام المقدّسة الثلاثة التي انتقل فيها المسيح من هذا العالم إلى لدن أبيه.

وبالنسبة للكنيسة، فالإعلان عمّا حصل في هذه الأيام الثلاثة («التريدوم» الفصحي) متضمّن منذ البدء في الاحتفال بالإفخارستيا.

إذ يحتفل العشاء الأخير، منبع الإفخارستيا، بالخلاص بطريقة رمزيّة. فالكلمات والأفعال التي تتلى على الخبز والخمر تجدد آلام المسيح وموته؛ وقدرة الروح القدس تخرق الصمت الذي يلبث فيه كلمة الله منذ رحيله يوم الصعود. وهو الروح القدس مجدداً من أقام جماعة التلاميذ الأوّلين في حالة السهر، يتذكرون لمدة خمسين يوماً وكلّ واحدٍ منهم يمضي في قوله «أتذكّر حين شفى الرجل الأعمى منذ مولده...»، «أتذكّر حينما قال: طوبى لكم...؟»، حتّى صارت ذاكرة كلّ واحدٍ منهم ذاكرة الجماعة

خلال جلسات العشاء التي تشاركوها سوياً، ذاكراً أصبحت بدورها عنصراً أساسياً في جماعة الشهود، ذاكراً تعيد الوقائع المؤسّسة للإيمان، ذاكراً تحتفل بهذه الوقائع حتّى اليوم، ذاكراً تلتفت إلى المستقبل: هو وَعَدَ بأن يجيء ثانيةً (١ قورنثس ١١،٢٥)، وأخيراً ذاكراً تبتهج في استنارة العنصرة. فحينها يتفجّر رقص صباح الفصح في هبّة مجنونة تنطلق من النساء القديسات لتصل إلى التلاميذ ومن الرسل لتصل إلى شعب أورشليم... ناقلةً إليهم البشرى: «المسيح قام!»

وهكذا تنضمّ الكنيسة إلى الحدث المؤسّس لإيمانها، لا كدلالة تاريخية تنحصر في إحياء ذكرى وصية رجلٍ ميّت، بل من خلال ليترجيّة حديثة الطقوس تقترح بطريقة الرموز عيش الدرب الذي سلكه «ذلك الحيّ الذي كان ميّتاً» (رؤيا يوحنا ١٨،١) بدءاً بمساء خميس الأسرار وحتّى يوم الفصح. وهذا ما تلخّصه الإفخارستيا وتعلنه، وهذا ما تحتفل به الأسرار الأخرى.

وهكذا أيضاً تعيّد الكنيسة امتداداً للأعياد الفصحية اليهودية^١ في شراكة مع بني إسرائيل ولكونها في الوقت ذاته تمثّل انقطاعاً عنها. فكلمة «الذكر» لا تشير فقط إلى ذكرى النهار الذي حدثت فيه الواقعة، بل إلى ما يحصل اليوم من اكتمالٍ للعهد الجديد الذي يسوده شخص المسيح وهو يهبُ حياته لأجلنا. هذا ما تمنحنا إياه قدرة الروح القدس من الإيمان، بعنصرة لا تنضب أبداً. ألم يسترع نتباهكم أنّ العنصرة هي المناسبة الوحيدة التي لا تقيم الصلاة الإفخارستيا ذكرى لها؟ ذلك لأننا لا نقيم عادةً ذكرى ما هو واقعٌ دائم، ما لا يزال واقعنا إلى اليوم.

١ اطلب الملحق I «الفصح اليهودي - فصح المسيح».

«الرمز» - Symbole

لا تشير كلمة (Symbole) إلى ما هو غير ملموس. بل على العكس! فهي حسب ما درج الإغريق على استخدامها، كانت تشير إلى غرضٍ كُسِرَ إلى قطعَتين وتوزعت قطعاه بين مدينتين أو بلدين حليقيين، أو ما بين شخصين رحل أحدهما في سفرٍ وبقي ثانيهما، إلخ. وكان هذا الفعل يشير إلى عهدٍ، عهدٍ على الصداقة تشهد عليه كلُّ من القطعتين. وإذ تجتمع القطعتان من جديد بعد مضيِّ وقتٍ طويل، فإنهما تعرّفان صاحبيهما أحدهما إلى الآخر وتلّم شملهما مجدداً. وتشيران في تشابكهما المحكم إلى الاعتراف بالوحدة التي لم تنقطع يوماً حتى حين كانتا منفصلتين. كذلك الحال في الليتورجية، فكلمة رمز تشير إلى حقيقة مرتبة تعكس حقيقة أخرى غير مرتبة ولكنها موجودة. على سبيل المثال حضور الربّ في خبز الإفخارستيا وخمرها.

فيما مضى، كان يسبق الاحتفال بعيد الفصح التحضير له بصيام يدوم ثمانٍ وأربعين ساعة يومي الجمعة والسبت، تتبعه ليلة صلاة يُصغى فيها إلى كلام الرب، ثم تُختم فجرَ الأحد بالقداس الإلهي.

واليوم، كما الأمس تماماً، لم يعد أي احتفال من احتفالات الأيام الثلاثة يماثل تماماً ما حدث فعلاً من وقائع آنذاك، حتى ولو كنا موجودين أثناءها في الأراضي المقدسة في أورشليم، وحتى لو مشينا على خطى يسوع. فالليتورجية ليست محاكاةً لأسبوع الآلام

خلافاً للمشاهد التمثيلية العديدة التي تصفه. فالموت والقيامة ليسا ممّا تُمكن محاكاته. بل نحتفل بهما كبركةٍ عظيمةٍ منشدين بخشوع التسابيح لله، وبصرخة عالية من الفرح والرجاء. الاحتفالات بأيام الفصح الثلاثة هي تعبير رمزيّ عن سرّ الله في يسوع؛ إنها أسلوب لتقديمه واستقباله من جديد في الزمن الحاضر، معاصراً لتاريخنا الشخصي.

خميس الأسرار

(الصلاة الافخارستية رقم ٤)

"فإنه لما حانت الساعة، لتمجده، أيها الآب القدوس، وقد أحب أصحابه الذين هم في العالم، أحبهم إلى أقصى الحدود: وفي أثناء العشاء...".

مثلاً يحتفل الشعب اليهودي بالفصح، ذكرى الخروج من مصر والمسير في الصحراء، كذلك كان المسيحيون الأوائل يحتفلون بليثرجية ليلية طويلة ذكرى لفصح المسيح. وبعد الاحتفال بالكلمة، كانوا يقومون برتبة غسل الأرجل الجميلة. وقد وصفها بعض آباء الكنيسة بأنها تعبر عن بذل يسوع لحياته، فهو، في خلعه ثيابه وائتزاره من جديد، كأنه كان يشير إلى ما سيفعل بحياته ذاتها.

ولقد واطبت الكنيسة الأولى على الاحتفال بطقس مماثل، أعطاه القديس بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس معنىً مسيحياً بقوله: «المسيح قدّم نفسه محرقة»، المسيح حلّ مكان حمل الفصح^٢ (راجع ١ كورنثوس ٥،٧)، وهو نفسه حمل الله الذي

^٢ اطلب الفصل ٣، ص ٣٧ من أجل شرح لمفهوما حول «التضحية».

أشار إليه يوحنا المعمدان (يوحنا ١٠،٢٩)، الذي يمنح حياته (أشعيا ٥٣،٧ ؛ يوحنا ١٠،١٨). وغياب الخميرة القديمة يعني زوال الخطيئة.

«أما تعلمون أنّ قليلاً من الخمير يخمر العجين كلّهُ؟ فطهّروا أنفسكم من الخميرة القديمة لتكونوا عجيناً جديداً لأنكم فطير. فقد ذُبح حملُ فصحنا، وهو المسيح. فلنعيّدُ إذًا، ولكن لا بالخميرة القديمة ولا بخميرة الخُبث والفساد، بل بفطير الصّفاء والحقّ.» (١ قورنثس ٥، ٦-٨).

سبب العطية

أخذت الكنيسة اعتباراً من النصف الثاني من القرن الرابع تعيّد العشاء الربّاني عشية خميس الأسرار، في حين كان يُحتفل سابقاً بعيد الفصح كوحدةٍ لا تتجزأ ليلة الفصح.

إذ بدأت الكنيسة في روما تقيم قداساً قبل قداس المساء، ويدعى قداس مصالحة التائبين. فأولئك الذين اعترفوا بكونهم خطأة، والذين أقاموا الصيام والصلاة خلال فترة الصوم الكبير (أو حتّى لعدّة سنوات) لكي يهتدوا للإيمان، والذين حُرّموا من تناول الإفخارستيا (إذ كانوا ينتمون إلى جماعة التائبين)، كانوا يأخذون الحلة من الأسقف صباح خميس الأسرار، ويشاركون في قداس المصالحة المذكور.

أمّا في كنيسة أورشليم، فكان يُحتفل بالقداس يوم خميس الأسرار بالقرب من الجلجلة. ثم يحتفل الأسقف بقداسٍ آخر لاحقاً حوالي الساعة الرابعة على موقع الصلب نفسه. وبذلك تؤكّد طبيعة التضحية التي يُحتفل بها على الهيكل إزاء

تضحية الصليب. وكانت المناولة فيه متاحة للجميع. وظهر أيضاً قَدَّاسٌ ثالث بعد ذلك، مكرَّسٌ لتحضير ومباركة الميرون المقدَّس، الزيت المطَّيب الذي يستخدم خلال السنة للمسحة المعطاة بعد المعمودية ولمسح الآباء والأساقفة لدى رسامتهم.

وبالمحصلة ظهرت ثلاثة قداديس اعتباراً من القرنين الرابع والخامس:

◆ قَدَّاس مصالحة التائبين،

◆ قَدَّاس تكريس الميرون،

◆ قَدَّاس تذكُّر العشاء السري، في المساء.

إذاً يُفتتح الاحتفال بالـ«التريدوم» الفصحي مساء الخميس، وتقيم الكنيسة ذكرى العشاء السري، العشاء الذي تناوله المسيح مع تلاميذه عشية آلامه. ويبدأ الاحتفال بترتيلة (راجع غلاطية ٥، ١٤) تذكُّر بوحدانية السر:

ليكن صليب سيدنا يسوع المسيح فخرنا الوحيد، به نلنا الخلاص والحياة والقيامة.

(صلاة الافتتاح، قَدَّاس خميس الأسرار)

وهذا السر هو ذاته الذي يُحتفل به يومي الجمعة العظيمة والفصح. إنه السر الذي يتمحور حول الدلالة التاريخية التي تُترجم في احتفالٍ ليُترجى بأفعال وإشاراتٍ معينة.

فتسعى الكنيسة المخلصة لدعوة المسيح إزاء عمل الخلاص المُنجز إلى القيام من جديد بأفعاله نفسها: فهي تكسر الخبز خلال صلاةٍ رفع الشكر لتُذكِّر بصلاة المسيح وتضحيته.

ولم يعد فعل غسل الأرجل لوحده فقط في موضع الأهمية، بل اكتسى رمزا الخبز والخبز الأهمية الأولى. وهما رمزان يدعواننا في الإيمان إلى أن نقبل بأن نخسر حياتنا ونستقبلها من جديد، في وحدة مع المسيح الذي مات وقام من بين الأموات.

الجمعة العظيمة

لكي يتمم مخطط حبك، سلم ذاته إلى الموت، وبقيامته قهر الموت وجدّد الحياة".

(الصلاة الإفخارستيا رقم ٤)

جرت العادة في القرون الأولى في أورشليم على القيام بحجّ يتبع خطى المسيح من جبل الزيتون حتّى القبر، مروراً بالحكم بالموت والجلجلة. وقد طبّعت هذه الليتورجية التطوايفية في ذاكرة المسيحيين رغبة مرافقة المسيح في المحطّات العديدة التي مرّ بها. وبقي لنا درب الصليب أحد أشكالها الذي لا يزال ماثلاً إلى يومنا هذا.

وتستعيد رتبة الجمعة العظيمة في شكلها الحالي، الذي أقرّه المجمع الفاتيكاني الثاني، هذا التقليد القديم بأسلوبها الخاص. ونعدّد ثلاثة من زيّاحاتها: دخول الكاهن المحتفل الصامت أو بالأحرى المهيب؛ دخول الصليب الاحتفالي وتكريم الجموع له؛ زيّاح المناولة.

• يرمز دخول الكاهن المحتفل في الصمت والخشوع الذي تنصّ عليه الرتبة اليوم إلى تواضع ابن الله، إذ لم يعد لديه هو، كلمة الله المسلّم إلى أيدي الخطأة، أيّ كلامٍ يقوله. ويلاحظ هذا الصمت في محاكمة المسيح كما يلاحظ القليل من الكلام

الذي قاله عند مثوله لدى عظيم الكهنة (مرقس ١٤، ٦٢) أو لدى بيلاطس (مرقس ١٥، ٤). و"العظماء" الذين لم يتمكنوا من احتمال صمته: «أما تسمع؟» (متى ٢٧، ١٣)؛ «أما تجيب بشيء؟» (مرقس ١٥، ٤)؛ «ولكن يسوع لم يجب بشيء بعد ذلك» (مرقس ١٥، ٥).

• ونقف في هذا اليوم أيضاً قبالة الصليب: فهو يدخل في احتفالٍ مهيب إلى قلب الجمع. ويدرك تاريخُ آلامِ البشريّةِ نروته بهذا التأمل، ويجتمع قطبان متضادان: ألم الإنسان ومجد الله.

وهنا تقام إحدى أقدم الصلوات الجامعة لكلّ البشر. وهي تعود في أساسها إلى صلاة المسيح كما صاغها قبيل اعتقاله: «يا أبتِ»، لا أدعو لهم وحدهم، بل أدعو أيضاً للذين يؤمنون بي عن كلامهم.» (يوحنا ١٧، ٢٠). ثم تكمل بصلاة المسيح التي تلاها من على الصليب: «يا أبتِ اغفر لهم...» (لوقا ٢٣، ٣٤). فهي ليست صلاةً لأجل جمهور المعمّدين الذين يسعون في حجّهم على الأرض وحسب، بل لأجل أولئك الذين لم يقبلوا الإيمان بعد والذين أرسل إليهم كصديق.

• ثمّ تفرض الجلجلة نفسها كدربٍ لا مفرّ منه للمشاركة في جسد المسيح. فنحن نكرّم خشبة الصليب، لا المصلوب. خشبة الصليب التي حملت خلاص العالم. والتي عليها سُمّر يسوع الفادي. وتدّ مدكوك في الأرض يمدّ جذوره فيها من جديد، شجرة الجنّة الجديدة التي يكون ثمرها للطعام وورقها للعلاج (حزقيال ٤٧، ١٢). نحن نكرّمها معلنين في الوقت نفسه موته وقيامته. ولكن، مع ما في الأمر من غرابة، يتردّد كالصدى صوتُ أنين الإله نفسه، وكأنه ينادي عدالتنا: «يا شعبي ماذا ارتكبتُ في حقّك؟ متى تسبّبت أنا بجزنك؟ أجبني!»؛ وعلى النقيض الآخر يقول لنا صوت رحمة

الآب: «انظروا، افرحوا!... انظر، أنا خَاصَّتْكَ.»

وهنا تماماً، في العشاء السري، استبق المسيح عطيته الكاملة بكسره الخبز. ويأتي موته على الصليب حيث كَسَرَ جسده محققاً ما قد أعلنه. وليست مناولة الجمعة العظيمة سوى شبيهةً لمناولة خميس العشاء السري، عندما كان المسيح محاطاً بالرسل؛ وكان موت المسيح على الصليب كان يحق الإفخارستيا.

«فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس، تعلنون موت الرب إلى أن يأتي» (١)
قورنثس ١١، ٢٦)

«إلى أن يأتي!» هذا ما لا يمكنه أن يُسِينَا أنّ الكنيسة لا تجتمع إلا من أجل المسيح الحي! فهي تنضم إلى فرح السماء حيث يعتلي المسيح عرش مجده ومن حيث سيأتي، كما ننشد في الصلاة الإفخارستية:

"المجد لك يا من مت، المجد لك أنت الحي، مخلصنا وإلهنا، تعال أيها الرب يسوع!"

ويضمنا الاحتفال الليتورجي أيضاً إلى تلك الفاتحة السعيدة لنهاية الأزمنة.

سبت النور

من المغربي أن لا نقول شيئاً عن هذا النهار. فهو يوم غياب التلاميذ واضطرابهم، إذ راعوا البطالة التي يفرضها السبت اليهودي. وسبت النور هو اليوم الوحيد في السنة الذي ندعى فيه إلى الصيام عن الإفخارستيا. ولعلها طريقة لتعميق جوعنا إلى الله، جوعنا إلى اللقاء المرتقب. وهو في آنٍ وقتٍ حدادٍ ووقتٌ رجاء، تملأه عبارة «نزل إلى

الجحيم» في "رمز الرسل"^٣ بروعة لا تضاهى. وفي الشرق الأوسط لوحاتٌ جداريةٌ عديدة تقدّم بحقّ هذه الرحلة المتخيّلة التي قام بها ابن الله إلى أعماق الأرض، إلى الزوايا المنسيّة من مدافن الشعوب جميعاً، ينتشل فيها من القبر الرجال والنساء الراقدين هناك منذ آدم وحواء بانتظار الخلاص الذي جعله بموته وقيامته، والذي ظهر للعيان يوم الفصح. وهكذا تدعونا صلاة ليترجيّة الساعات إلى السهر. فتبدأ تسبحة ذلك النهار بالسؤال وتكرّر: "من يمكنه أن ينام"، ثم تتابع بالقول: "الله قد قام ليحكم وليخلص المتواضعين في الأرض".

ليلة الفصح

أيها الأخوة الأحباء،

في هذه الليلة السامية القداسة، عبّر يسوع المسيح ربّنا من الموت إلى الحياة. لذلك تدعو الكنيسة أبناءها المنتشرين في العالم كله إلى أن يجتمعوا للسهر والصلاة. فإذا ما أحيينا ذكرى فصح الرب، في الاستماع للكلمة والاحتفال بأسراره، كُنّا على رجاء مشاركته في انتصاره على الموت، والحياة معه دائماً في الله.

(إعلان افتتاح العشيّة الفصحية)

يلمع سرّ القيامة في قلب الإفخارستيا. وتتبع ليترجيّة الكنيسة من خبرتها عن أول يومٍ من أيام الأسبوع، وهي اللحظة التي تنسب إليها الأناجيل حصول القيامة، وتدرك

^٣ إحدى صيغتي قانون الإيمان: «أؤمن بالله واحد، أبٍ ضابط الكل، خالق السماء والأرض، وبربنا يسوع المسيح، ابنه الوحيد».

أوجها بالإفخارستيا، وخاصةً تلك التي تقع في ليلة الفصح. إنّه اليوم الثالث، اليوم الذي سيصبح "يوم الرب" (الأحد)، الذي اعتاد المسيحيون فيه منذ البداية على الاحتفال بذكرى ربهم المنتصر على الموت. وتسبق هذا الأحد ليلة صلاة نحتفل خلالها بالتهيئة المسيحية، درب القداسة الذي يسمح فيه المتعمدون الذين غُسلوا في ماء المعمودية بميرون التثبيت ويُقادون إلى مائدة الإفخارستيا.

ونحن نحتفل بـ«ليلة» الفصح وليس «عشية» الفصح! وذلك لأنّ الليلة تتصل بنهار القيامة. فهي تعلن عنها وتقود إليها، ولا تعرف النوم فاصلاً قبل إدراكها، وكأنّها في ذلك تشدّد على تحفّز المسيحيين لبلوغ اليوم التالي. فكيف نفسر اليوم الرغبة المتأجّجة بالموث في السهر فيما تتحقّق قيامة الرب؟ ما يزال علينا عمل الكثير لكي نشارك كمسيحيين في ليترجية هذه الليلة التي تبلغ رموزها من الغنى حدّاً يجب معه أن تدعنا نقرب أكثر من السرّ الذي تُعلن. وطبعاً يبقى ما حدث أثناء الليل والفجر سرّاً من أسرار الله، إلاّ إنّ الإيمان لا ينمو إلاّ في الصمت.

• نبذة من التاريخ

تابع المسيحيون الذين يتحدّرون من أصولٍ يهوديةٍ تعيدهم الفصح في اليوم نفسه الذي يحتفل به اليهود. فكانوا يحتفلون بانتقال المسيح عبر إحيائهم ليلة طويلة من

٤ كلمة أحد بالفرنسية dimanche تأتي من اللاتينية Dies Dominica، التي تعني «يوم الرب».

صلاة الشفاعة لخلص إخوتهم من الشعب اليهودي. أمّا من بقي من المسيحيين الذين يتحدّرون من أصولٍ وثنيّة، فقد أخذوا اعتباراً من القرن الثاني بتعييد الفصح سنويّاً يوم الأحد الذي يلي فصح اليهود.

وأتى مجمع نيقية عام ٣١٤م ليؤكّد أنّنا لدى احتفالنا بعيد الفصح وبكلّ أيّام الأحد فإنّنا نحتفل بسرّ المسيح القائم من بين الأموات.

وكانت ليترجيّة الفصح اليهودي، لدى حلول الليل مساء الجمعة، تقضي بأن يباشر ربّ العائلة بإشعال النور في المصباح. فأعطى المسيحيّون الأوائل إلى هذه العادة معنىً جديداً: رفع الشكر إلى المسيح، نور العالم.

نبدأ جميعاً الاحتفال بليلة الفصح برفع الشكر إلى المسيح النور في دماسة الليل. وهذا أوّل عملٍ نؤدّيه في السهرة الفصحية. واعتاد المسيحيّون اليوم على إشعال النار ما إن تغرب الشمس. وتبقى الكنيسة مظلمة ولو من نورٍ يضيءُ محرابها، تخليداً لذكرى موت المسيح عشية ذلك النهار، ولذكرى اليوم الذي فارق فيه هذه الأرض. وتقيم الكنيسة السهر في الانتظار.

النار! ليس القصد منها سعيراً متأجّجاً، بل بصيصاً متواضعاً هو أشبه بالرجاء الذي لا تنجراً بعد على إبدائه. وهكذا تستمرّ ليترجيّة النور في أطرادٍ حتى تشحب النجوم لدى بروز ملامح الفجر الأولى.

وتبدأ شعلة سراج الفصح إزاء هذه النار الجديدة تنتقل من مؤمنٍ إلى آخر، وينشد

الشمّاس: «نور المسيح! نور المسيح!» ليحتفي بالليل الذي يضيء كالنهار. وحينها يحمل المعمّدون جميعاً في أيديهم سراجاً مضاءً يتيح التقدّم في الإيمان نحو خُورس الكنيسة حيث تصدح أناشيد القيامة. أيا ليلة السعادة الحقّة، يذهب فيها العهد إلى أبعد مما كُنّا لنتصوّر! في هذه الليلة، قام المسيح من القبر.

والكنيسة إذ تترقّب مجيء المسيح الآتي، تقف في أهبةٍ لاستقباله، متحفّزةً للمسير إلى ملاقاته، متوجّهةً بجسمها إلى الشرق كما الساهر الذي يترقّب بزوغ خيوط الشمس الأولى.

(متّى ٢٤، ٢٧). وفي هذا الانتظار صاغت الكنيسة الأولى رجاءها وصلاتها: «ماراناتا! تعال أيّها الربّ!»

أسئلة للحوار

* بعد هذا السرد حول إقامة سر الإفخارستيا، تدعونا الكنيسة في الصلاة الإفخارستيا إلى ترتيل هذه المقدمة: "المجد لك يا من متّ! المجد لك أنت الحي! تعال أيّها الرب يسوع، مخلصنا وإلهنا!".

لمَ هذا التمجيد لمن مات؟ لم نقول: "تعال" بينما الرب موجود هنا، في الخبز والخمر المكرسين؟

* كيف تفسّرون طقس النار والنور في بداية السهرة الفصحية؟

* كيف تساعدكم قراءة هذا الفصل على أن تعيشوا كل افخارستيا بالطريقة التي تعيشون فيها كل يوم من أيام الأسبوع المقدس، أسبوع الآلام؟

صلاة الاجتماع:

إنجيل يسوع المسيح حسب القديس مرقس ١٤ : ٢٢-٢٥

وبينما هم يأكلون، أخذ خبزاً وبارك، ثم كسره وناولهم وقال:

"خذوا، هذا هو جسدي". ثم أخذ كأساً وشكر وناولهم، فشربوا منها كلُّهم، وقال لهم:

"هذا هو دمي، دم العهد، يُراق من أجل جماعة الناس.

الحق أقول لكم: لن أشرب بعد الآن من عصير الكرمة، حتى ذلك اليوم الذي فيه

أشربه جديداً في ملكوت الله".

واجب المجالسة:

١- نحن مدعوون إلى أن نعيش على مثال يسوع المسيح، أي أن ندع الروح القدس

يقودنا ونحن نعيش الحب. ماذا يغير ذلك في حياتنا الزوجية وفي حياتنا الشخصية؟

٢- لماذا نذهب لحضور القداس؟ هل نذهب للقاء "شخص ما"؟

قاعدة الحياة:

ألتقي المسيح في كل شخص. أية قاعدة حياة أختار في ضوء هذا القول؟



الفصل الثاني

غسل الأرجل (يوحنا ١٣: ١-٢٠)

درب للتأمل

للإعداد مسبقاً:

لكي نستعدّ لفهم عمل يسوع عندما غسل أقدام تلاميذه، علينا أن نلاحظ وجبات طعام العيد عندنا، ففيها كلّها ما يمكن أن ندعوه: قبل وأثناء وبعد.

- وقت للتحضير: نكتب فيه قائمة بكل ما نحضّره، وهل هناك بعض المواد التي لا غنى عنها أو بعض "الطقوس المألوفة" كبعض الأعمال التي تحمل معنى أكثر من غيرها، ولكننا لا نفّسرها إلا إذا كانت استثنائية (وفي هذه الحالة نعطيها معنى).

- وقت للتنفيذ: كالاستقبال والحديث وتعابير المودّة والأماكن المختارة وكلمة "إلى اللقاء" التي نقولها عندما نفترق. فهناك إذن أكثر من مجرد أعمال ومواقف، هناك عبارات متبادلة أيضاً...

- وقت للتذكّر مع الذين عاشوا معنا الحدث، وقت لتعيد الاتصال معاً، ووقت لكي نتساءل عن التغيير الذي حصل. فعندما تعيدوا قراءة فصل غسل الأرجل (يوحنا ١٣: ١-٢٠)، حاولوا أن تشيروا إلى هذه المراحل المختلفة، ثم اقرأوا هذا الفصل.

يمكن الاعتقاد أن يسوع قد احتفل بالفصح اليهودي سنويّاً منذ طفولته، فلهذا العيد

تاريخ طويل، إنّه محفور وبعمر في ذاكرة اليهود جميعاً لأنّه يمثّل بداية ملحمة كبيرة. فكل واحد يحفظ في ذاكرته ذكرى الحدث الذي يحتفل به هذا العيد: إنّه تحرير الشعب العبراني الذي فرّ من العبودية في مصر بفضل التدخّل العجائبيّ لإله إسرائيل. إنّه المسيرة الطويلة لشعب الله المتّجه إلى أرض الميعاد بقيادة موسى خلال أربعين عاماً. "ويكون لكم هذا اليوم ذكرى، فتعيّدونه، عيداً للرب. تعيّدونه مدى أجيالكم فريضة أبدية". (خروج ١٢: ١٤)

ومنذ ذلك الحين احتفل بالفصح اليهودي من جيل إلى جيل، كذكرى لهذا الهروب المنتصر، ولكنّه استنكار خاص للظروف الخاصة التي طبعت بطابعها ليلة الرحيل: لقد كانت وجبة طعام أخذت على عجل: "تكون أحقاؤكم مشدودة ونعالكم في أرجلكم وعصيّكم في أيديكم" مستعدّين للرحيل، كما يصفه لنا سفر الخروج. (١٢: ١-١٤)

وهكذا، ومنذ ذلك الزمان، ومع ربيع كل عام في موسم ولادة الحملان، ومع بدء ارتياد الماشية الكأ، يُحتفل بالفصح بوجبة طعام ذات طقس ليليّ في ليلة اكتمال البدر في الربيع.

وعلى اتصال وثيق مع حادثة الخروج من مصر والحمل الذي تمّ تحضيره ليلة الرحيل والذي كانوا يرشّون من دمه على دواعم الخيم (وليس على نجفات أبواب البيوت، كإشارة متّفق عليها لتمييز بيوت اليهود ووقاية ساكنيها من الضربات التي كانت سترافق الخروج من مصر)، منذ ذلك اليوم، صار دم الحمل في إسرائيل "دماً مخلصاً" (خروج ١٢: ٢١).

ولمّا وصل شعب إسرائيل إلى أرض كنعان الموعودة، راح يُحيي كلّ عام ذكرى عمل الله في الخامس عشر من شهر السنابل (نيسان) أي بداية الحصاد، حصاد الشعير. لقد كان طقس العيد طقساً ليليّاً ومرفقاً دائماً بنحر تيس ماعزٍ أو حملٍ يُختار في اليوم العاشر ويُنحر في اليوم الرابع عشر. وقد احتفظت الكنيسة بنفس أسلوب حساب الأشهر القمرية لتحديد تاريخ عيد الفصح.

وكان الحيوان يؤكل عند الفجر مع أعشاب مرّة (وهي الوحيدة التي كانت توجد في الصحراء) مع الخبز الفطير، أي بلا خمير لأنّه لم يكن لديهم الوقت لترك العجين يختمر.

" قبل عيد الفصح، كان يسوع يعلم بأن قد أتت ساعة انتقاله من هذا العالم إلى أبيه، وكان قد أحبّ خاصّته الذين في العالم، فبلغ به الحبّ لهم إلى أقصى حدوده" (يوحنا ١٣: ١).

إنّها ليست المرّة الأولى التي يتناول فيها إنجيل يوحنا موضوع ساعة يسوع، فقد رأينا ذلك في عرس قانا (يوحنا ٢: ١-١٢) أو في الحوار مع السامريّة (يوحنا ٤: ١-٢٦) وكذلك عندما حاول البعض توقيفه ولكنّهم "لم يضعوا يدهم عليه لأنّ ساعته لم تكن قد حانت بعد" (يوحنا ٧: ٣٠)، وحين أوكل أمرَ مريم إلى يوحنا قبل لحظات من موت يسوع (يوحنا ١٩: ٢٧). وفي كل مرة نلمس أن يوحنا يصف ساعة يسوع على أنّها ساعة انتقاله من هذا العالم إلى الآب أي ساعة موته، ساعة سفك دمه على الصليب عندما سيمضي إلى النهاية، إلى أقصى الحب الذي يحمله لخاصّته. ويتّضح هذا

الأمر أكثر عند ربطه بحبة الحنطة التي تقع في الأرض وكيف عليها أن تموت لتحمل الوافر من الثمر. (يوحنا ١٢: ٢٣-٢٤)

فعند غسل الأرجل، يشير يوحنا إلى أنّ "ساعة يسوع قد أتت". ويكتسب هذا العمل أهمية كبيرة لكونه يساعد في فهم ما جرى في العشاء الأخير. وتبّضح أهميته أكثر نظراً لكون يوحنا لم ينقل لنا عبارات تقديس الخبز والخمر أي تلك التي تؤسس سرّ الإفخارستيا كما فعل الإنجيليون الآخرون. (متى ٢٦: ٢٦-٢٩؛ مرقس ١٤: ٢٢-٢٥؛ لوقا ٢٢: ١٧-٢٠) وكما فعل القديس بولس (١كورنتوس ١١: ٢٣-٢٦). فرواية غسل الأرجل تكفي يوحنا سيّما أنه قد سبقها الحديث عن خبز الحياة (يوحنا ٦) قبل عدة فصول.

إنّ غسل الأرجل يمثل المفتاح لقراءة العشاء الأخير. إنّه عمل رمزيّ (أي أنه يعني أشياء أبعد منه). إنّه يلخّص كلّ ما عمله يسوع خلال حياته وهو يشكّل نقطة محوريّة في رسالة يسوع العلنيّة على دروب إسرائيل ومن قرية إلى قرية معلناً مجيء ملكوت الله وكاشفاً عن العلامات التي تشير إلى مجيئه: كشفاء المرضى وغفران الخطايا واستضافة الغرباء والمشاركة في الطعام والدعوة إلى التوبة في بيوت الأغنياء... وفي كل مرة فإنّ الأمر يشبه إلى حدّ ما عمليّة غسل الأرجل لهذه الإنسانيّة الجريحة المتعطشة إلى العدالة والسلام، المستعبدة لحبّ تملّك خيرات هذا العالم، لهذه الجموع الضائعة التي لا تدري إلى أين تتّجه والتي أصبح يسوع بالنسبة إليها الحمل والراعي، الخادم والسيد. وهكذا نرى أنّ يسوع كان يبذل ذاته في كل ساعة من ساعات حياته.

وها قد حانت الساعة الحاسمة، ساعة إتمام كل شيء؛ فكُنْزُ الخبز كان يعني بذل حياته. ومباركة الكأس، التي طلب فعلها لذكره، كانت إشارةً إلى وَهْبِ حياته أيضاً.

"وقبل عيد الفصح... وخلال العشاء..."

يسوع يركع أمام الإنسان! فهل رأينا مرةً إلهاً يقرع باب التاريخ ليتسؤل الحقّ في أن يُحبّ؟ الحقّ في أن يخدم الإنسان، الحقّ في أن يُكرّم كخادم أمين؟ هذه هي الصلاة المستمرة في رواية غسل الأرجل هذه. إنّها صلاة يسوع ابن الله لأجل الجنس البشري كلّ. إنّها علامة حبّ لم تعرفه الديانات البشريّة. إنّها علامة إله غير متوقّع ولا يمكن تصوّره أبداً.

ألم يكن بطرس على حقّ عندما اعترض على غسل يسوع لقدميه؟

لقد رأينا فيما سبق كيف أنّ الحديث عن خبز الحياة (يوحنا ٦) كان قوياً جداً وصعباً لدرجة أنّ الكثيرين من تلاميذ يسوع تركوه (يوحنا ٦ : ٦٦) ولم يبق سوى نفر قليل وهم الذين كانوا الأكثر قرباً منه. ومع ذلك فإنّ يسوع قد صَدَمَ (أعْتَرَّ) بطرس عندما أعلن أنّه على ابن البشر أن يتألم ويموت ويقوم بعد ثلاثة أيام (مرقس ٨ : ٣١-٣٢). ولا عجب في ذلك، فما قاله يسوع كان بعيداً جداً عما كانوا ينتظرونه من المسيح الآتي. فكيف لهذا الأمر أن يتمّ؟

وظهرت صدمات أخرى كثيرة عندما أعلن يسوع ثانية عن آلامه المرتقبة بحسب مرقس (٩ : ٣٠) حتى إنّ الرسل لم يجرؤوا أن يسألوه، ومن الممكن أنّهم كانوا مدركين تماماً للأمر ولكنهم لم يكونوا راغبين في كشفه "حتى إنّهم اختلفوا فيما بينهم في من هو

الأكبر بينهم" (لوقا ٢٢: ٢٤). وفي الواقع، وقد مات يسوع ولم يكونوا ينتظرون هذه اللحظة، من سيكون الأكبر؟ وقد أجاب يسوع على هذا السؤال: "إن ملوك الأمم يسودونها وأصحاب السلطة فيها يريدون أن يُدعوا مُحسنين. أمّا أنتم فليس الأمر فيكم كذلك، بل ليكن الأكبر فيكم كأنه الأصغر والمترئس كأنه الخادم" (لوقا ٢٢: ٢٥-٢٧). فإذا ما نقل لوقا هذا الحديث في نفس اللحظة التي كان فيها يسوع يحتفل بالعشاء الأخير (لوقا ٢٢: ١٤-٢٠)، فذلك لأنّه في اجتماعات المسيحيين الأوائل كان الكهنة والشمامسة يخدمون الموائد ويخدمون الفقراء مقدّمين لهم الطعام أولاً ثم خبز الإفخارستيا مؤكّدين بذلك رغبتهم في تذكّر دعوة يسوع إلى الخدمة التي كان هو نفسه قد سبقهم إليها في ذلك اليوم.

"فقام عن العشاء فخلع ثيابه، وأخذ منديلاً فانتثر به، ثم صب ماء في مطهرة وأخذ يغسل أقدام التلاميذ ويمسحها بالمنديل الذي انتثر به" (يوحنا ١٣: ٤).

لا شك أنّ تلك اللحظة كانت احتفالية، فالمشهد كان فريداً ومؤثراً. لقد أراده يسوع مشهداً صامتاً ولكن احتجاج بطرس قطع صمت هذا المشهد: "أأنت يا رب تغسل قدمي... لن تغسل قدمي أبداً!" (يوحنا ١٣: ٦-٨).

إنّه آخر عملٍ وآخر كلمة وآخر رمز مستوحى من حياة الإنسان العادية. وقد أضحي استذكّار ذلك عملاً نبوياً في الكنيسة الناشئة. فيسوع يرجو بطرس مستحلفاً إياه باسم الله: دعني أخدمك أيضاً وللمرة الأخيرة! وكأنّه يسأله: إلى أي مدى تسمح لي أن أحبّك؟ إنّ فهمًا كهذا وقراءة كهذه للكتاب المقدس ليسا جديدين، فقد مارسهما آباء الكنيسة منذ القرون الأولى. ويضيف البابا يوحنا بولس الثاني أيضاً:

"إنَّ الأمر يتعلّق بحقّ يسوع على كل إنسان اقتداه. إنَّ الحقّ ببقاء كلّ منّا في هذه اللحظة الهامّة من الحياة والتي هي لحظة العودة والغفران" (مخلّص البشر - رقم ٢٠).

ويحنا إذا لم نفهم! لأنّه لم يُعدّ هناك ما يقال، فقد صمّت الله... ولم يعد الوقت وقت نقل التلاميذ من السؤال إلى البرهان ومن الأمثال إلى الروايات الإنجيليّة.

إنّ عملاً واحداً وجملّةً بسيطةً يكفيان لكي نستنتج:

"لقد جعلتُ لكم من نفسي قدوةً لتصنعوا أنتم أيضاً ما صنعتُ إليكم" (يوحنا ١٣ : ١٥).

"إذا كنتُ أنا قد غسلت أقدامكم، فافعلوا أنتم كذلك."

واليوم، وفيما يجد البعض أنّ تكرار هذا العمل أضحى قديماً ولا يمكن التكيّف معه، يحتجّ الآخرون على غرار بطرس: "لا، لن تغسل قدمي!" وبعد ألفي عام، يبقى من اللائق أن نقول أيضاً إنّ هذا العمل يحدّد الطريق لكل مسير خلف يسوع. وما إحياء هذا العمل مساء الخميس المقدّس إلا تأكيد قويّ على ذلك، تأكيد يستمد قوّته من الصمت ومن الحركات التي ترافقه:

"فإذا كنتُ أنا المعلّم والربّ قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أيضاً أن يغسل بعضكم أقدام بعض" (يوحنا ١٣ : ١٤).

وهنا يُطرح السؤال نفسه عن معرفة ما قصده الربّ عندما طلب منّا القيام بنفس العمل؟ وأيضاً، ما هو مضمون عبارة "هذا" الصغيرة عندما يقول يسوع لنا أثناء العشاء

الأخير: "افعلوا هذا لذكري"؟

إنَّ الأمر أكبر من مجرد أخذ بعضٍ من الخبز وقليلٍ من الخمر وترديد عبارةٍ مجيدة بقدر ما هي عصيّة على الفهم: "هذا هو جسدي، هذا هو دمي...!" وليس الأمر كذلك مجرد تقليدٍ لما فعله يسوع ونحاول نحن أن نفعله تماماً بنفس الطريقة التي نفترض أنّ يسوع قام بها!

لا، فالمقصود من جهة أولى هو أن نكون بشراً على مثال يسوع، على مثال الخادم. ويتابع يسوع مفسّراً عمله: "أنتم تدعونني معلماً وربّاً وأنا كذلك فعلاً ولكن كخادم. افعلوا هذا لذكري، وذلك ليس فقط بأن يغسل بعضكم أقدام بعض في حياتكم اليومية، بل بأن تفعلوا ما يرمي إليه هذا العمل الرمزيّ في الواقع، أي أن تصبحوا خدماً بعضكم لبعض حتى بذل الذات. آنذاك تُضحّي علامةً الجسد المبذول كخبزٍ مكسور يصير غذاءً للطريق، وتصبح علامة الدم المراق كنبيدٍ يجري بوفرة لسعادة البشر. إنّ هذه العلامة المزدوجة تلخّص ما سنكون قد فعلناه لخدمة إخوتنا في نفس اللحظة التي ندّعي فيها أنّنا نستذكر ما فعله يسوع. إنّ هذا الالتزام الحياتيّ الكامل سيعطي لمشاركتنا في الإفخارستيا كلّ منطقتها وأصالتها.

ومن جهة أخرى، فإنّ الكنيسة لم تنسَ أنّ أوّل واجباتها وأكبر الخدمات التي يمكنها أن تقدّمها إلى الإنسانيّة هي أن تعرض على البشر اللقاء بالله الحيّ، لقاءً يتحقّق بشكل أساسيّ في إحياء الأسرار، والإفخارستيا على وجه الخصوص. وبالنسبة إلينا نحن المسيحيين، فإنّ خدمة الإخوة تتجسّد في هذا التناوب: ففي حين تستمدّ الخدمة

الاجتماعية قدسيّتها من إحياء السرّ، فإنّ خدمة الإخوة تُعمّق إحياء السرّ. وبهذه الطريقة يعيّر شعبُ الله عن سرّ السلام الذي يسكنه.

وهكذا يتمّ في الفعل الليتُرجي ما طلب منّا يسوعُ أن نفعله. وبطريقة أخرى، فإنّ الخدمة المعاشة مع الأيام في خدمة الإخوة خلال الشدائد التي يعيشونها، توضح معنى الكلمات والأعمال التي نقولها ونفعلها لتقديس الخبز والخمر استذكّاراً لما فعله يسوع. إنّ قوة وفعاليّة هذه العبارات والأعمال الخاصة بالسرّ لا تكتفي بمجرد تجسيدها بأمانة في الخدمة الاجتماعية، لكنّها تجعل عمل الخلاص الذي عاشه المسيح معاصراً في الكنيسة المحتفية والمصلية. فالأمر إذن لا يتعلق بقصة بل بفعلٍ تقديسٍ من خلال لقاء الله.

"هنا يا ربّ النعمة لكي نشارك حقاً بهذه الإفخارستيا، لأنّه في كل مرة نُحيي فيها هذه الذبيحة كذكرى، يتمّ عملُ خلاصنا. برّبنا يسوع المسيح" (صلاة تقال على التقادم في بداية ليترجية الإفخارستيا للخميس المقدس كذكرى لعشاء الرب).

وكما كتب انريكو مازا في كتابه "الفعل الافخارستي": إنّ الأمر يتمّ كما لو أنّ القداس يتطابق مع العشاء الأخير تطابقاً رائعاً.

وتتلو غسل الأرجل إشارةً تُسلط الضوء على الخدمة والتقدمة، فبعد الانتهاء من العشاء ينهض يسوع عن المائدة من جديد ليخرج إلى بستان الزيتون (لوقا ٢٢: ٣٩-٤٢)، إلى حيث تنتهيّ التقدمة الأخيرة، إلى حيث تدور المعركة الأخيرة لحرية يسوع وحياته قبل الصليب. وهناك في بوتقة الصلاة حيث "صار عرقه كقطرات دم" على حدّ قول القديس لوقا (٢٢: ٤٤)، يمزج يسوع بين حقيقة كلمات التأسيس وبين وهب الذات

حتى النهاية.

وبالتالي، فإذا كان صحيحاً القول بأنّ تناولنا جسد ودم يسوع يتحقّق فعلاً عندما نعيش حياتنا في خدمة إخوتنا فإنّ إحياء الإفخارستيا "يجعلنا ورثة الحياة الأبدية" (طيطس ٣: ٧). وهذا ما يطلبه يسوع من الآب لكل من يؤمن به ولكل الذين قرّروا بذل حياتهم على غراره.

وهكذا فنحن مرسلون لنبشّر في خدمة البشر، ولنكون تلاميذ في فعل الشكر الذي نحن مدعوون إليه، وذلك باتّحادنا مع التقدمة التي يقّمها يسوع لله وللبشر.

إنّ عشاء الفصح الذي تقاسمه يسوع مع تلاميذه محاطٌ بهاتين اللحظتين اللتين تؤسّسان وتكرّسان لواقع الكلمات والفعل على الخبز والخمر. وهذا يعطي معنىً لعبارة "هذا" التي تدعونا الكنيسة إلى إحيائها استذكّاراً ليسوع.

"فكان قد أحبّ خاصته الذين في العالم، فبلغ به الحبّ لهم إلى أقصى حدوده".

وينقل لنا يوحنا تفاصيل أكثر؛ فلكل جزء من هذه الجملة أهميته: "خاصته"، "العالم"، "إلى أقصى الحدود".

خاصته:

إنّهم التلاميذ ورفاق الدرب، وكذلك أولئك الذين لم يقبلوه والذين أوكله بهم الآب، وأيضاً أولئك الذين سيؤمنون به ذات يوم. ولنذكر هنا قائد المئة الروماني والمرأة السورية-

الفينيقية وحماة بطرس والأعمى منذ مولده وكثيرين آخرين وقد نكون نحن أيضاً منهم: "لدرجة أنه لا يمكن لإنسان أن يعتبر نفسه بعيداً أو غير مبالٍ بمصير عضوٍ آخر من العائلة البشريّة" (الفاتيكانى الثانى). فالقريب هو كل من أوكلني الرب به وكذلك الذين وضعوا ثقتهم بي. وهكذا، من قريب إلى آخر، نصل إلى "الكثيرين" الذين تقصدهم عبارة يسوع التي يتلوها على الناس.

العالم:

لقد أحب يسوع العالم دون أن يغادر دروب بلاده ودون أن يحلم بأفضل ما في هذا العالم، ودون الاحتماء خلف عالمٍ روحيٍّ بعيداً عن مشاكل عصره. لقد كان دائماً النزول من الجبل: وكم روى لنا الإنجيل عن ملاحظاته عن الزراعة وعن حياة المدن وعن عادات العظماء والوضعاء وعن الفرح وعن الشقاء. ملاحظاتي عن عالمٍ جريح ولكنّه محبوب، هذا العالم المأخوذ بتقنيّاته واختراعاته ونموّه. إنّ العالم هو مكان اللقاء اليوميّ مع أشخاصٍ يكشف سفرهم إلى جانبنا في رحلة الحياة وحده مصيرٍ غريبة. ويبدو يسوع كما لو أنّه متّحدٌ بالجنس البشريّ بكل ثقافته وأوضاعه الشديدة الاختلاف. وهكذا فنحن مدعوّون إلى رفع شعار هذه الوحدة العميقة للجنس البشريّ في قلب الاحتفال الافخارستي الذي نُحييه استذكّاراً له.

إلى أقصى الحدود:

لقد أحبّهم إلى أقصى الحدود! وكلمة "أقصى" هنا ليست هي أقصى الحدود لبعض عمالقة الإيمان! وكلمة "حبّ" هنا تنسبنا كل مطالبة بالصورة. إنّ الخادم، إلهٌ خادم لا

يخشى اتّخاذ الوضع البشريّ ليقترّب من البشر، إذ كثيراً ما بدت له البشريّة جميلةً (اقرأ غلاطية ٢: ٨)! إنّه الحبّ حتى النفس الأخير الذي استودعه بين يدي الأب. وكما يقول هانس قون بالتأذار: "إلهٌ مُحبٌّ وينشر حبه من جرح أصابه به ذاك الذي وضعه على الأرض". إنّ الإفخارستيا هي إشارة إلى ذبيحة حياةٍ مقدّمة بحريّة. وهكذا فإنّ تاريخ يسوع برمته يبدو كغسل أرجلٍ كبيرٍ للبشريّة: كالأشفية بغفران الخطايا والوعظ والتبشير أثناء الطعام... "اصنعوا هذا لذكري!".

إنّ استنكار حدثٍ مؤسسٍ هو اعترافٌ بأنّ لهذا الحدث أهميّةٌ تتجاوز ظهوره في لحظة معينة في التاريخ! إنّه أكبر ممّا عاشه الناس لحظة حصوله. هذا الحدث هو عملُ الله الذي يبقى أنياً وحاضراً أبداً في كل الأجيال. إنّه مقدّمٌ لنا على أنّه عمل الله في إطار احتفال طقسِي. (مونسيور روبير كوفي)

إنّ غسل الأرجل هو الرسالة التي تؤكّد يوماً بعد يوم المهمّة المتلقاة. إنّه يجعلنا أصحاب "نصيبٍ مع يسوع"، هذا النصيب الذي تحدّث عنه إلى بطرس! إن هذا العمل يجعل منا رسلاً في شركة الخدمة والتسبيح على طريقة يسوع.

وعلى هذا العمل يؤسس يسوع جماعة التلاميذ. هذا هو الإرث الذي تلقيناه، إنّه باب الدخول إلى الأسبوع المقدس، باب مفتوح على الرسالة:

"إذا أحبّ بعضكم بعضاً عرف الناس أنّكم تلاميذي". (يوحنا ١٣: ٣٥).

وهكذا نصل إلى ما يشبه النتيجة: "أمّا وقد علمتم هذا، فطوبى لكم إذا عملتم به"

(يوحنا ١٣ : ١٧). إنّها تطويبة السامري الذي أصبح تلميذاً عند منعطف الطريق. إنّها تطويبة كل جماعة مسيحية تحيي الذكرى يوم الخميس العظيم على طريقة الإنسان الذي كانه يسوع الناصري وحيث يحاول كل واحد بدوره أن يقدم للخدمة ما تلقاه: جسده وذكاءه ووقته.

وإذا ما قمنا بواجبنا في الخدمة فإننا نسلط الضوء على حبّ لا يمكننا أن نضاهيه أبداً ولكننا مدعوون إلى ذلك دون أن يخطر ببالنا أن نشترى خلاصنا بقوانا الخاصة: لأنّ ذلك هو عمل المسيح. وليس علينا نحن أن نقوم بما قام به هو بل بقبوله وبشكره وبأن نكون خداماً للخادم. وهذا هو نتاج كل احتفال طقسي وأسراري.

أسئلة للحوار:

١- أثناء غسل الأرجل، أجاب يسوع بطرس المستاء:

"إذا لم أغسلك فلا نصيب لك معي".

ماذا يعني أن يكون لنا نصيب مع يسوع؟

٢- كيف يمثل غسل الأرجل حياة يسوع كلها؟

٣- يقول يسوع للتلاميذ: "إذا كنت أنا الرب والمعلم قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم

أنتم أيضاً أن يغسل بعضكم أقدام بعض". أين تجد هذه الدعوة صداها في حياتكم؟

٤- قارنوا بين قول يسوع أثناء العشاء الأخير كما ورد في إنجيل يوحنا وكما ورد في

باقي الأنجيل: "اصنعوا هذا لذكري". كيف يتحقق هذا في القداس وفي خدمة الأخوة؟

صلاة للاجتماع: إنجيل يوحنا (١٣ : ١-١٥)

قبل عيد الفصح، كان يسوع يعلم بأن قد أتت ساعة انتقاله عن هذا العالم إلى أبيه، وكان قد أحبّ خاصته الذين في العالم، فبلغ به الحبّ لهم إلى أقصى حدوده. وفي أثناء العشاء وقد ألقى إبليس في قلب يهوذا بن سمعان الإسخريوطي أن يُسلمه، وكان يسوع يعلم أنّ الآب جعل في يديه كل شيء. وأتّه خرج من الله، وإلى الله يمضي، فقام عن العشاء فخلع ثيابه، وأخذ منديلاً فانتزر به، ثم صبّ ماءً في مطهرةٍ وأخذ يغسل أقدام التلاميذ، ويمسحها بالمنديل الذي انتزر به. فجاء إلى سمعان بطرس فقال له: "أأنت، يا رب، تغسل قدمي؟" أجابه يسوع: "ما أنا فاعلٌ، أنت لا تعرفه الآن، ولكنك ستدركه بعد حين". قال له بطرس: "لن تغسل قدمي أبداً". أجابه يسوع: "إذا لم أغسلك فلا نصيب لك معي". فقال سمعان بطرس: "يا رب، لا قدمي فقط، بل يدي ورأسي أيضاً". فقال له يسوع: "من استحّم لا يحتاج إلا إلى غسل قدميه. فهو كله طاهر. وأنتم أيضاً أطهار، ولكن لا كلّم". فقد كان يعرف من سيسلمه، ولذلك قال: لستم كلّم أطهاراً. فلما غسل أقدامهم لبس ثيابه وعاد إلى المائدة فقال لهم: "أنقهمون ما صنعت إليكم؟"

أنتم تدعونني "المعلم والرب" وأصبتم فيما تقولون، فهكذا أنا. فإذا كنت أنا الرب والمعلم قد غسلت أقدامكم، فيجب عليكم أنتم أيضاً أن يغسل بعضكم أقدام بعض. فقد جعلت

لكم من نفسي قدوةً لتصنعوا أنتم أيضاً ما صنعت إليكم.

واجب المجالسة:

١- هل يشكل تلقينا أحد الأسرار فصحاءً لنا؟ (أي الموت عن الخطيئة مع المسيح، والقيامة معه إلى حياة جديدة، ضمن جماعة الكنيسة).

كيف نعيش مع المسيح هذه المزايا المتعلقة بالفصح؟

٢- ما المكانة التي تحتلها الإفخارستيا في حياتي الإيمانية؟ ما الذي تغيّره ممارسة الإفخارستيا في حياتي؟

قاعدة الحياة:

اختيار قاعدة حياة انطلاقاً من مشاركتي المقبلة في الإفخارستيا.



الفصل الثالث

عرس قانا (يوحنا ٢: ١-١٢)

درب للتأمل

للإعداد مسبقاً

تسليط الضوء على كلمة ذبيحة

- ما الذي تعنيه هذه الكلمة بالنسبة إليكم؟ وما هي، على سبيل المثال آخر تضحية

قررتم القيام بها؟ لماذا ولمن؟

- ما هي الصور التي توحى بها الذبيحة لكم عن الله؟ وما رأيكم بذلك؟

- ابحثوا عما يقوله عنها الكتاب المقدس: خروج ١٢: ٨، ١٣: ٤، ١٥: ٩-١١،

٢٢: ١-١٨. تثنية السفر ٢٦، الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس ٥: ٧-٨. الرسالة

إلى العبرانيين ١٠: ١-٢٥. متى ٩: ١٣ ومرقس ١٢: ٣٣.

- ابحثوا أيضاً عما يقول عنها في الصلاة الإفخارستية الأولى (الرجوع إلى كتاب القديس) واقرأوا هذه المقاطع.

ماذا وجدتم عما يسمّى بالذبيحة (في العهد الجديد وفي صلاة الإفخارستيا) مطابقاً للفكرة التي لديكم عنها؟ أعيّدوا قراءة تعريفكم الأولى وقارنوا.

تسليط الضوء على كلمة عهد:

- ما الذي تعنيه هذه الكلمة بالنسبة إليكم؟ وهل هي تعبير قانوني أم عقد ينظم العلاقات بين البشر، أم شيء آخر؟ ومع من سبق لكم أن أقمتم عهداً؟

- اقرأوا إنجيل قانا في يوحنا ٢: ١-١٢ ثم اقرأوا في إحدى الصلوات الإفخارستية (كتاب القديس) عن العهد (عن المزج بين الخمر والماء وعن صلاة البركة (التقديس) بعد تهيئة التقدّم في رواية تأسيس سر الإفخارستيا). قارنوا بين صلوات الإفخارستيا الرئيسية.

ما تأثير كل ذلك، من ناحية الإيضاح أو التعديل، لمفهومكم عن العهد.

"طوبى للمدعوين إلى وليمة الحمل" (رؤيا يوحنا ١٩ : ٩).

يصف لنا إنجيل عرس قانا عرساً شعبياً دعي إليه يسوع وتلاميذه كضيوف بسيطين. إنها رواية مثيرة تتميز ببعض التفاصيل التي تزيد من واقعيّتها وظرفها؛ كالأجران الحجرية وسعتها (١٠٠ لتر للواحد) ودهشة رئيس المتكأ أمام نوعية الخمر الذي يصل عند نهاية المأدبة.

ومن المؤكد أن هذه التفاصيل هي وراء اختيار العديد من الأزواج قراءة هذا النص أثناء الاحتفال بزواجهم. فهل سيكون النص أكثر تعبيراً وغنى فيما لو ركزنا على اهتمام مريم وقلقها أو على الحوار الساخن الذي جرى بين يسوع وأمّه؟

ليس من الممكن أن يكون هناك في الواقع، وراء هذه السذاجة الظاهرة، تعليماً هاماً وغامضاً دفع القديس يوحنا لأن يقول: "كانت هذه أولى معجزات يسوع وأظهر فيها مجده؟"

يبدو أن يوحنا يدعونا لئلا نقرأ هذه القصة قراءة سطحية؛ إذ فيها معانٍ أكثر عمقاً. ولكي نفهمها جيداً، علينا أن نتبع أسلوب الاقتراب من النص بالتدرج عن طريق الأسئلة كما جرت العادة في الكنيسة عندما نفسّر الكتاب.

مائدة عيد:

لقد ورد الحديث عن مائدة عيد أو وليمة عرس في أماكن كثيرة من الكتاب. وكان اليهود يحلمون بأن الرب سيجمع خاصته ذات يوم ليقدم لهم آخر وليمة مسيحية (أنظر على سبيل المثال أشعيا ٢٥: ٦). ويحدّد متى أنّ الناس من كل أمة ولسان ومن كافة الطبقات سيأتون إلى هذه الوليمة ليجلسوا مع ابراهيم (متى ٨: ١١). وخلال تلك المائدة، سيدور الرب على الجميع ليخدمهم واحداً واحداً (لوقا ١٢: ٣٥).

ويؤكد يوحنا على طريقته من خلال روايته المبتكرة لعرس قانا على انتظار الوليمة المسيحية. إن إيمانه يسلط الضوء على حقيقة مفادها أنّ وليمة الملكوت، تلك الصورة الجميلة عن العيد والسعادة، لها علاقة مع مائدة العرس في قانا. ولكن أليس لعرس قانا، ولو بصورة أكثر غموضاً، علاقة ما مع الإفخارستيا ولكن بصورة مجازية طبعاً، إلا أننا نستطيع أن نحاول إيضاحها عالمين بأن الوشاح لن يُكشف نهائياً إلا

عند عودة المسيح؟ ومن هنا كان من الواجب الاحتفال بعرس الحمل كما يُعلنه كتاب الرؤيا (١٩: ٩)، ذلك العرس الذي يمهد له عرس قانا والذي يقوم العهد فيه على ذبيحة^٥.

الماء والخمر

ليس في عرس قانا إشارة مباشرة إلى الإفخارستيا، ولكنها لن تكون المرة الأولى التي نفسّر فيها الولايم الكتابية كصورة عن العشاء الأخير كما هو الحال على سبيل المثال في اللقاء بين ابراهيم وملكيصادق الذي يقدمه لنا فيلون الاسكندري، حيث يروي المقطع الذي فيه يقدّم ملكيصادق ملك شليم خبزاً وخمراً إلى ابراهيم ويعقوب قائلاً: "نعم، إن ملكيصادق قد قدّم خمراً وليس ماءً كما اعتاد الملوك أن يفعلوا. إنه يقدم الخمر كمشروب أكثر نقاء من الماء وستستولي على أرواحنا نشوة إلهية أكثر بساطة مما عداها". الخمر حلّ فيها محلّ الماء وهكذا نجد أنفسنا في عرس قانا، حيث سيكون للماء دور كبير لأنه سيتحول إلى خمر عيد!

ولكن ألن تتحول هذه الخمر، التي يشير إليها فيلون، في مأدبة أخرى إلى دم له القدرة على التطهير أكثر من الماء، تطهير كامل لن تبلغه كل الذبائح الحيوانية والقواعد الشرعية التي كانت سائدة آنذاك؟

وبالفعل، يشير يوحنا بدقّة إلى أن أجران الماء كانت هناك للتطهير: لأجل عادة التطهير عند اليهود. ونحن نعلم كم نقض يسوع العادات الشرعية وكيف حاول جاهداً أن يحولها كما حوّل الماء إلى خمر! ولنتذكر في هذا الصدد تطهير الهيكل الذي تحدثنا عنه يوحنا في الفصل الثاني، وكم كانت تصرفات يسوع قاسية ونبوية عندما

^٥ فيما يتعلق بالذبيحة، انظر الملحق رقم ٢.

طرد التجار والصيارفة من بيت أبيه!

إنّ المقصود من هذا التطهير، هو إبطال ذبائح الحيوانات ورشّ الشعب بدمائها. ولنتذكّر كيف تم الربط بين هدم الهيكل وبين جسد يسوع الذي سيُرْفَع بعد ثلاثة أيام (يوحنا ٢: ١٩). وهناك أيضاً، ألنّ يحلّ جسد يسوع ودمه محلّ الذبائح الحيوانية كما سيحلّ الخمر محلّ الماء والدم محلّ الخمر؟

نعم هذا ما سيتم التأكيد عليه عندما يشير يوحنا إلى أنّ الحدث قد تم في اليوم الثالث (يوحنا ٢: ١)؛ اليوم الثالث حيث أظهر يسوع مجده كان يوم قيامة جسمه. وسيعقّب يوحنا على ذلك عندما سيروي فيما بعد عرس قانا موكّداً بشكل واضح أنّ جسد يسوع سيحلّ محلّ هيكل الحجارة.

إنّ فكرة كون جسد يسوع هو الهيكل الجديد، تقودنا فوراً إلى قراءة خاتمة إنجيل يوحنا ولكن ليس دون الوقوف عند الصليب (يوحنا ١٩: ٣٤) حيث امتزج الماء بالدم الجاري من جنب المسيح المفتوح: وبهذا نكون في قلب الذبيحة التي تؤسس العهد الجديد.

وتجدر الإشارة إلى أنه لم يكن في كل ما سبق ما هو عرضي أو متروك للصدفة لقلم كاتب الإنجيل الرابع. فالقصة مكتوبة بقصد لكي يتسنى للقارئ أن يقيم هذا الربط الذي صار بمقدورنا الآن أن نلمس بعضاً من عمقه. ومن المسلّم به أنّ كل ذلك لم يكن ممكناً فهمه إلا بعد قيامة المسيح: "عندما سيقوم يسوع من بين الأموات" (يوحنا ٢: ٢١-٢٢).

ولكننا، ومنذ عرس قانا، كنا موضوعين مباشرة في إطار ذبيحة المسيح. وهذا ما بقي علينا أن نوضحه لنفهم العلاقة بينه وبين الإفخارستيا.

ما لي ولك أيتها المرأة؟ لم تأتِ ساعتِي بعد" (يوحنا ٢ : ٤).

وكانت هذه نقطة الانطلاق في معجزة قانا؛ إذ تدخلت مريم حتى لا تتوقف سعادة الناس وفرحهم بهذا الاحتفال. إذ لم يعد لديهم خمر!

إن جواب يسوع لأمه يشدّ انتباهنا: فما هي تلك الساعة التي لم تأتِ بعد؟

إنها الساعة التي سيجري فيها خمر العيد بوفرة لسعادةٍ لا نهاية لها. إنها الساعة التي سيُظهر يسوع القائم مجده وذلك بالضبط عندما سيسفك دمه، دم العهد الجديد الذي سيُراق بوفرة كخمرة قانا. فبهذه الساعة يعد يسوع أمه التي ستكون يومها عند أقدام الصليب (يوحنا ١٩ : ٢٥)؛ فباشتراكها بآلامه، ستكون لها القدرة على التدخل من جديد من أجل أولئك الذين فقدوا صوت الفرح والعيد الذي يطلبه المزمور ٥٠ : ١٠. إن خمرة العيد تنقصهم وكذلك الابتهاج والسعادة وستقدّم لهم خمرة أفضل من كل الخمر الأخرى. وهكذا تتحد ساعة مريم مع ساعة يسوع، إذ ستصبح مريم ابتداءً من ذلك اليوم أمّاً لكل البشر: "أيتها المرأة، هوذا ابنك" (يوحنا ١٩ : ٢٦). إنها ساعة خلاص البشرية وساعة مجد يسوع.

"فقال يسوع للخدم: "إملأوا الأجران ماءً". فملأوها إلى أعلاها. فقال لهم: "اغرفوا الآن وناولوا وكيل المائدة" (يوحنا ٢ : ٧).

وهكذا يُظهر لنا يوحنا منذ بداية إنجيله التزام يسوع عن طريق الوهب الكامل للذات. ففي الآية ٧/، يبدن يسوع طريق الخدمة بناء على نداء مريم، حواء الجديدة، وصورة البشرية التي تنتظر التحرير. فلقد أدت به أقواله وأعماله تدريجياً إلى الموت. والساعة

تشير بوضوح إلى بدء رسالة يسوع في قانا وانتهائها على الصليب.
ولما كان القديس يوحنا يهدف إلى إظهار ذلك، لنلاحظ كيف أطر كل هذا النشاط
ببداية ونهاية تؤدّيان بنا إلى نفس الحدث: ساعة الذبيحة. فالتجليّ المجيد لا يكمن
حصراً في معجزة قانا، بل في واقعية حياة يسوع المقدّمة كذبيحة.

ذبيحة العهد الجديد

إنّ عمل يسوع متجذر في تقليد اسرائيل. ولكن ذبيحته لم تكن استعادة للذبايح الطقسية
للعهد القديم قبل الجلاء إلى بابل. فذبيحة التسبيح وفعل الشكر عند يسوع هما استنكار
لكل المواهب المتلقاة من الله ابتداء بحياته التي وضعها بين يدي الآب. وتُظهر كلمات
الشكر التي ترافق الكأس ذلك بوضوح، إذ إنّ حياته كلها ستصبح "ذبيحة تسبيح" كما
يقول القديس بولس إلى أهل روما. إن مأدبة السبت والاحتفال بالأعياد ستكون معلّمة
بأوقات صلاة تشكّل فيها المزامير الجانب الأكبر. (إلى أهل أفسس ٥ : ١٩ وإلى أهل
كورنتوس ٣ : ١٦).

"إني أسألكم إذاً أيها الإخوة برأفة الله أن تجعلوا من أنفسكم ذبيحة حية مقدّسة
مرضية عند الله. فهذه هي عبادتكم الروحية" (إلى أهل روما ١٢ : ٢).

وهكذا نجد سواء في عرس قانا وفي العشاء الأخير إعلاناً عن ذبيحة دموية. ففي قانا
لم تكن قد أتت ساعته بعد. ولكن عندما ستقترب، فإن فظاعة الآلام والدم المسفوك
سيدفعانه إلى رفع آخر صلاة له وإلى القرار النهائي أمام آخر تجربة: "أفلا أشرب

الكأس التي ناولني أبي إياها" (يوحنا ١٨ : ١١). ويورد يوحنا الخاتمة التي توضح بشكل أكبر العلاقة التي تربط قانا والعشاء الأخير: "لكنّ واحداً من الجنود طعنه بحربة من جنبه، فخرج للوقت دم وماء" (يوحنا ١٩ : ٣٤).

إنّ رواية يوحنا لما تلى طعنه الحربة تستأثر باهتمامنا. إنه يؤكّد على الحدث الذي كان شاهداً له ويؤكد أنّ الغرض من هذه الشهادة هو إيقاظ الإيمان عند الآخرين: "إنّ الذي رأى شهد لتؤمنوا أنتم أيضاً" (يوحنا ١٩ : ٣٥). ولكن في شهادة يوحنا هناك دعوة إلى العودة إلى الحدث الذي كان يتم في نفس اللحظة في هيكل أورشليم، إذ إنّ موت يسوع على الصليب كان في نفس اللحظة التي تُتحرّ فيها حملان الفصح في الهيكل وتُهبأ لاحتفال الغد. وهنا صار بمقدورنا أن نقرأ الحدث قراءة رمزية تخص حياة يسوع مباشرة. وهذا ما كان يدور في خلد يوحنا عند كتابة إنجيله. فمنذ الآن وصاعداً سيصبح يسوع على الصليب هو حمل الله الحقيقي، حمل الفصح الجديد (بطرس الأولى ١ : ١٩). وهكذا يموت رجل واحد من أجل خلاص الجميع (يوحنا ١١ : ٥٠). هذه هي ذبيحة يسوع التي يُحتفل بها في كل افخارستيا.

ومن المرغوب فيه أن نشير بدورنا إلى أنه في علم الأيقونات الكنسية، كما هو مثلاً في الأثر الغني ذي الأجزاء الثلاثة ل. ديرك بوتس في لوفان، يُمثل الخبز الافخارستي بشكل حمل في الصحن الذي يحيط به يسوع وتلاميذه.

الماء والدم والروح

يمكن توضيح العلاقة مع الإفخارستيا بإشارة سابقة تحدّد رمزية الماء والدم (راجع يوحنا ١٩ : ٣٤).

قال يسوع: "أنا عطشان" ثم "ولما تناول يسوع الخل قال: "تمّ كل شيء". ثم حنى رأسه وأسلم الروح" (يوحنا ١٩ : ٢٨-٣٠).

الماء يرمز دائماً إلى الروح، أمّا الدم فهو مقرّ الحياة (انظر لاويين ١٧ : ١١-١٤). إن الدم الذي يسيل من جنب المسيح المفتوح يشير إلى حياته المبذولة. وكما يهب الماء الذي يجري من الهيكل، كما ورد في سفر حزقيال، الحياة لكل أنواع الأشجار التي ستكون ثمارها غذاء وأوراقها علاجاً، هكذا تتم رسالة الخلاص. "إنّ من يشرب من هذا الماء لن يعطش أبداً" (يوحنا ٤ : ٤). وهكذا، وفي لحظة موته، يمتزج الماء الحي للروح القدس مع الدم المسفوك الذي يرمز إلى الحياة المبذولة ويصبح بدوره شراباً حقيقياً (حسب يوحنا ٦ : ٥٥). ألن تتحوّل خمرة العيد إلى دم المسيح على طاولة الإفخارستيا بقدرة هذا الروح عينه؟.

إنّ الروح القدس وحده هو الذي يحقق في هذه اللحظة ما نرجوه أن يتممه، إذ لا أحد منا يستطيع أن يفعله!

نرجوك أيها الأب أن تقس بهذا الروح عينه تقادماً لتصبح بذلك جسد ودم ابنك في احتفالنا بهذا السر الكبير الذي تركه هو لنا علامة عهد أبدي. (الصلاة الإفخارستية رقم ٤. استدعاء الروح القدس على الخبز والخمر).

فلولا الروح المعطى لنا لما استعطينا أن نميّز في خبز الشركة وفي الخمرة المقدّمة،

حضور ذاك الذي به "تمّ كل شيء". إشارة أخيرة إلى الطاعة الكاملة التي أراد يسوع أن يحيها لخلّاص الجميع لحظة انتقاله من هذا العالم إلى أبيه.

"تمّ كل شيء": إنها آخر كلمات يسوع التي أصبحت "صرخة نصر المسيح على عرش الصليب" على حد قول أحد اللاهوتيين.

سنلاحظ من خلال دراسة هذا النص مدى ارتباط موضوع مآدبة العيد بموضوع الذبيحة. وبعيداً عن التناقض أو التناهي فإن هذه الوحدة تساعدنا على قراءة قصة قانا في إطار سر الصليب المحتفى به في الإفخارستيا. وهكذا، فمن قانا إلى الإفخارستيا مروراً بصليب المسيح، كل هذه المعجزات وأولها معجزة قانا تتقاطع وتوضّح بعضها بعضاً: ففي معجزة الخمر في قانا، والتي هي صورة عن الدم المسفوك، نتذكّر أنّ سعادة الحياة الأبدية في الإنسان مقدّمة لنا من جديد في كل افخارستيا.

الكلمات التي تتلى على الكأس.

"خذوا واشربوا من هذا كلكم، هذه هي كأس دمي، دم العهد الجديد المراق عنكم وعن الكثيرين لمغفرة الخطايا"

(كلمات التقديس في كل صلاة افخارستية).

إن التأمل في عرس قانا يسمح لنا بالتقدم خطوة إلى الأمام وفهم معنى الكلمات التي قالها يسوع على الكأس.

ولقد فهمنا جيداً أن هذه العبارات مرتبطة في جزء منها بمفهوم الذبيحة والعهد الممهور بدم الحيوانات والموروث عن العهد القديم منذ أقدم العصور. وهذه الكلمات موجودة في العبارات التي قالها يسوع على الكأس في مساء العشاء الأخير (انظر الاستشهاد السابق). ولكنّ تعليم يسوع وشهادته غيراً نمطها ومعناها أفهمنا أن الحياة المبذولة بحب، وحدها فقط، تعادل الذبيحة والموت الذي يتبعها، فالحياة الأبدية معطاة لمن يعرض حياته للموت حباً وأمانة للعهد.

لكن هذا العهد لا يعطي الشعب المؤتمن عليه فوقية وألوية على الآخرين، بل يحقق ما حاول تحقيقه من خلال النبوءات طيلة العهد القديم، ألا وهو الانتقال من تمسك خارجي بالشرعية إلى شريعة حب مكتوبة في قلب الإنسان مثلما هي مطبوعة في القلب المطعون للعبد المتألم كما أعلن النبي إرميا.

"ولكن هذا العهد الذي أقطعه مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب، هو أنني أجعل شريعتي في بواطنهم وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً" (إرميا ٣١ : ٣٣).

وهكذا نمضي من ذبيحة طقسية إلى ذبيحة شخصية. ولكن بدلاً من أن يتعارض، فإن العهدين يتحدان في الإفخارستيا في صورة الدم والماء المنبثقين من نفس جرح المسيح. وعندما يلفظ يسوع كلماته على الكأس، فإنه يستخدم "فعالاً" يدل معناه على موتٍ تم بحادث عنيف (أراق دمه) وهو الذبيحة. وهكذا يعلن يسوع ما سيعمل به. إنه إعلان صريح عن الآلام في وسط العشاء الأخير. هذا هو العطش الحقيقي للحب الذي حفرت مياها المعمودية في قلب التلميذ، لكيما يتشجع بدوره ويخاطر بحياته، مشاركاً

بذبيحة روحية حتى بذل الذات استنكاراً لحبه الأول (حسب تعبير سفر الرؤيا ٢ : ٤).
إنّ البركة على الكأس هي فعل شكر من أجل هذه المائدة التي فيها نتذكّر العهد
الجديد الذي تم فيه مخطط الله للخلاص من خلال غفران الخطايا، عهداً ممهوراً ولكن
بدم المسيح هذه المرة.

وهكذا تستقبل الكنيسة الحياة المنبثقة من المصلوب وتقدم كأساً طافحة باستمرار من
أجل حياة العالم. إنّه الدم المراق لكي يُشرب.

إن الشرب يعني التغمّي من أجل حياة أفضل. إنه عرض لزيادة الحياة، حياة موهوبة
بوفرة. وترمز الدعوة إلى الشرب من نفس الكأس إلى الوحدة التي تحققت أخيراً بين الله
والبشر. وتبقى هذه الكأس فريدة ولا يمكنها أن تنجز أو أن تُقسّم. إنها نفس الكأس
التي نحن مدعوون جميعاً إلى شربها. وبهذا، فهي ترسخ أيضاً الوحدة في جسد
الكنيسة وترسخ وحدة التلاميذ إنّ كلمات يسوع على الكأس أضحت لغة قوية تستخدم
ألفاظاً كانت معروفة في أيام يسوع لتعبّر عن حقيقة جديدة ولكنها صعبة التفسير.
ولذلك فهي بمفردها لا تستنفذ عمق السر الذي تدخلنا إليه. وبالتالي فهي لا تتلى
معزولة أبداً، بل يجب أن تُرفق دائماً مع الكلمات التي تتلى على الخبز.

أسئلة للحوار:

* في القداس لا يميّتون يسوع إذ إنه قد قام بشكل نهائي. ويتحدثون تقليدياً في الكنيسة
عن "ذبيحة القداس"، فكيف تفسّرون هذا التناقض الظاهر؟

* بماذا يندركم توقيع (مهر) الرب بدمه لعهد جديد وأبدي بين أبيه وبيننا، إذا كانت كل حياة يسوع مبذولة لأبيه ولإخوته حتى الموت؟ وهناك بلا شك علاقة قوية جداً بين معنى الذبيحة ومعنى العهد. فهل تفهمون ذلك بشكل أفضل على ضوء ما ورد في رسالة بولس إلى أهل أفسس ٥ : ٢؟

صلاة لأجل اللقاء

إنجيل يسوع المسيح بحسب القديس يوحنا ٢ : ١-١٢

وفي اليوم الثالث، كان في قانا الجليل عرسٌ وكانت أم يسوع هناك. فدُعي يسوع أيضاً وتلاميذه إلى العرس. ونفدت الخمر، فقالت لیسوع أمه: "ليس عندهم خمر". فقال لها يسوع: "ما لي وما لك، أيتها المرأة؟ لم تأتِ ساعتِي بعد". فقالت أمه للخدم: "مهما قال لكم فافعلوه". وكان هناك ستة أجرانٍ من حجرٍ لما تقتضيه الطهارة عند اليهود، يسع كل واحد منها مقدار مكيالين أو ثلاثة. فقال يسوع للخدم: "املأوا الأجران ماءً". فملأوها إلى أعلاها. فقال لهم: "اغرفوا الآن وناولوا وكيل المائدة". فناولوه، فلما ذاق الماء الذي صار خمرًا، وكان لا يدري من أين أتت، في حين أن الخدم الذين غرفوا الماء كانوا يدرون، دعا العريس وقال له: "كلُّ امرئٍ يقَدِّمُ الخمرَ الجيدة أولاً، فإذا سكر الناس، قدَّم ما كان دونها في الجودة. أمّا أنتَ فحفظت الخمرَ الجيدة إلى الآن". هذه أولى آيات يسوع أتى بها في قانا الجليل، فأظهر مجده فأمن به تلاميذه ونزل بعد ذلك إلى كفرناحوم هو وأمه وإخوته وتلاميذه، فأقاموا فيها بضعة أيام.

واجب المجالسة

- ١- مراسم الزواج هي عيد دائماً. هل عرفنا كيف نجعل معاني العيد والاستقبال تستمر في حياتنا إلى درجة يرانا فيها الآخرون سعداء؟
- ٢- كيف نستعد للمشاركة في الإفخارستيا؟ هل هي مسيرة فرح أستعد لها بالوصول قبل بدئها بزمن كاف؟ أم هي واجب عليّ إتمامه بأسرع وقت ممكن؟

قاعدة الحياة

ماذا أختار حتى أتذوق مشاركتي في الإفخارستيا القادمة؟



الفصل الرابع

تكثير الخبز (يوحنا ٦ : ١-١٥)

درب للتأمل

للإعداد مسبقاً

نحن مدعوون هنا إلى اكتشاف وفهم الصلاة الافخارستية. فهناك عشر منها متروكة لخيار الكاهن الذي يحيي السر. وبالأحرى هناك ثلاث عشرة صلاة، لأن الصلاة من

أجل الظروف الخاصة تتضمن أربعة نماذج مختلفة. ولكم ملء الوقت لتطالعوها في كتاب القداس الذي لديكم وأن تكتبوا قائمة بها وأن تقرأوها. فكل واحدة تتميز عن الأخرى بالعودة إلى أصلها من حيث قدمها أو ظروف كتابتها، ولها جميعها بنية مشتركة.

- حاولوا الإشارة إلى الأجزاء المشتركة والمتباينة في هذه الصلوات.

- حاولوا أن تقيّموا بنيتها (أنظر المخطط المعروف في الملحق ٧) وطبقوا هذه البنية على الصلاة الإفخارستية رقم ٢.

اقترح آخر: اقرأوا الذاكرة (تعليم الرسل) فهو من أقدم النصوص التي يمكن أن تقدّم لنا ماهية صلاة الإفخارستيا (نحو القرن الرابع) حتى لو لم تكن كاملة.

"الخبز الذي سأعطيهِ أنا هو جسدي أبذله ليحيا العالم" (يوحنا ٦ : ٥١).

"وكان قد اقترب الفصح عند اليهود" (يوحنا ٦ : ٤). وكان يسوع وتلاميذه قد أمضوا اليوم كله في التعليم. وعندما حل المساء، وقد أخذته الشفقة على الجموع، التفت يسوع إلى تلاميذه المتعبين أيضاً إذ لم يكن لديهم الوقت ليأكلوا (انظر مرقس ١ : ٣١) وسأل فيليبس: "من أين نشترى خبزاً ليأكل كل هؤلاء؟" (يوحنا ٦ : ٥). في البداية يبدو الحديث عن مبلغ المال اللازم، إنه مبلغ كبير أكثر من /٢٠٠/ يوم عمل! ويظهر عند مرقس اهتمام الرسل الكبير بالصعوبات المادية؛ فنراهم يطلبون من يسوع أن يصرف الجموع. وهنا نكتشف واقعية الرسل، فهم ليسوا من الحالمين! بل يعرفون قيمة الأشياء. وتشير الأناجيل إلى أن يسوع كان مهتماً بتغذية الجسد أيضاً وليس بالتغذية الروحية

فقط.

وبقية القصة معروفة. حيث أجلس يسوع الجموع وشكر الأب وقدم الخبز والسّمك وبقيت اثنتا عشرة قفة مليئة بخبز الشعير. وفي الغد، وبعد رواية هذا الحدث، ولحظة التّقاء الجماهير بيسوع، يأتي حديث يسوع العميق عن خبز الحياة (يوحنا ٦ : ٢٢ - ٢٩).

يسوع هو المسيح المنتظر الآتي لخلص العالم

إن كل الأحداث التي سبقت رواية تكثير الخبز تفيض بالتوتر والفواجع. ففي حين لم تكن الجماهير راغبة بالإيمان بيسوع (يوحنا ٢ : ٤٠ - ٤٤)، نجد بالمقابل آخرين يعرفون شهرته وكانت قلة منهم تحاول اللحاق به لكي يشفي مرضاها. وتشير نهاية قصة تكثير الخبز إلى حدث هام جداً كنتيجة لها: إنه اعتراف الجماهير بيسوع على أنه النبي الكبير الآتي إلى العالم (يوحنا ٦ : ١٤) وقد أرادوا أن ينصّبوه ملكاً على إسرائيل (الآية ٥)؛ مما دفع بيسوع إلى إرسال تلاميذه في سفينة من الشاطئ الآخر للبحيرة (متى ٦ : ٤٥) وأن يختفي هو في الجبل.

وفي هذا الجو يروي لنا يوحنا قصة تكثير الخبز محاطة بردود الفعل المختلفة تجاه يسوع. وكان يهدف إلى تقديم يسوع ودوره المسيحاني بشكل أفضل؛ فهو لن يكون كما كانت تأمل الجماهير: موسى جديد يكرّر معجزة المنّ. نعم لقد كثر يسوع الخبز ليطعم الأجساد، ولكنه حمل لنا خبزاً من طبيعة أخرى: إنه خبز الحياة الذي يعطي الحياة

الأبدية! "إن الخبز النازل من السماء هو الذي يأكل منه الإنسان ولا يموت" (يوحنا ٦: ٥٠).

وهذا الخبز ينزل من السماء أيضاً ولكنه يعطي الحياة الأبدية (الآية ٥٨). والأكثر من ذلك هو كونه متماثل مع يسوع المرسل من الآب (آية ٥٧) والنازل من السماء والذي يهب نفسه طعاماً (آية ٥٤). فهل يتعلق الأمر بالخبز فقط؟ لا، فهو يعطينا جسده لتأكله (آية ٥٤) ويبذل هذا الجسد ليحيا العالم (آية ٥١)! ولكن كيف يمكن ذلك؟ طبعاً لم يفهم الجميع هذا (آية ٥٢). وكيف يمكن لإنسان أن يتحدث حديثاً كهذا؟ لقد صُدِمَ البعض! ويحاول يوحنا جاهداً كما رأينا في الأناجيل الإزائية أن يرينا ماذا فعل يسوع لكي يفهم التلاميذ ما أراد أن يقول.

* ففي البداية، ومقابل التجربة المسيحانية المنتصرة التي كان يمكن أن ينجرف وراءها التلاميذ، يبادر يسوع إلى عملية قطع، فنراه في متى ومرقس يرغم تلاميذه على ركوب السفينة والذهاب إلى الشاطئ الآخر نحو بيت صيدا (مرقس ٦: ٤٥).

* وبعد ذلك تروي لنا ثلاثة أناجيل (ما عدا لوقا) كيف لحق يسوع بتلاميذه في وسط البحيرة. "وكانت الريح مخالفة لهم" (مرقس ٦: ٤٨). وتُظهر التفاصيل التي يرويها (المساء، الليل، شدة الريح والمسافة التي عبروها)، تُظهر قصداً حازماً وتدفعنا إلى قراءة رمزية للنص، قراءة لا تمس حقيقة الأحداث ولكنها تساعدنا على فهم تفاصيلها كما يشير مرقس: "وعند المساء" (٦: ٤٧)، "وفي آخر الليل" (٦: ٤٨). ألم يكن الإنجيلي يهدف، عبر الدهشة العظيمة التي كان فيها التلاميذ (مرقس ٦: ٥٢) إلى إقامة علاقة بين معركة الظلام التي كان التلاميذ يخوضونها على البحر وتلك التي

سيخوضونها ساعة الآلام؟ فهذه مقبولة بمقدار ما يمكن أن يكون الفجر الذي ظهر فيه يسوع هو ذاك الذي يشير إلى ضياء القيامة: نحن الآن في المجال التعليمي والرمزي. وفي الوقت الذي كان فيه كسر الخبز قائماً، تحاول الأناجيل أن تفهمنا العلاقة بين الطقس الليتورجي ومعنى كلمات يسوع في العشاء الأخير أو في حديثه عن خبز الحياة.

* ويحاول يوحنا أن يحمل لنا ضوءاً جديداً، وهو إعلان اسم ذلك الذي يتجه نحوهم في العاصفة والذي يخفف من روعهم وقلقهم وبحسب الشراح، فإن تدخّل يسوع لم يكن مجرد قوله "هذا أنا" بل حرفياً "أنا هو، لا تخافوا" (يوحنا ٦ : ٢٠). وبهذا الاسم القديم جداً في التقليد الكتابي، يبدو يسوع على علاقة مع موسى ومتماثلاً مع ذلك الذي كان يتحدث إلى موسى في العليقة المشتعلة ويكشف له عن اسمه (خروج ٣ : ١٤). وبهذا يؤكد يوحنا أن الله قد أعطى اسمه الخاص إلى يسوع: "أنا هو". وسيكرر هذا العنوان في عدة مقاطع من الإنجيل والتي لها علاقة بالصليب: "متى رفعت ابن الإنسان، عرفتم أنني أنا هو" (يوحنا ٨ : ٢٨) أو كما حصل حين غسل الأرجل حيث كانت خيانة يهوذا تلوح في الأفق "منذ الآن أكلمكم بالأمر، قبل حدوثه، حتى إذا حدث تؤمنون بأني أنا هو" (يوحنا ١٣ : ١٩). ونحن نعلم معنى ذلك: أنا هو الذي سيكون معكم في لحظة الضيق كغذاء يقويكم في الطريق. وحتى لو بلغ الأمر في العهد القديم أن راحوا يعززون إلى موسى، وهو مجرد إنسان، أعمالاً فائقة الطبيعة، فلماذا لا نعتزف ليسوع، وهو الموسوم باسم الله، أشياء لا يمكن فهمها ولا تحقيقها إلا من قبل الله وحده؟ وكأني بيوحنا أراد الإشارة بلسان يسوع إلى المسافة التي بينه وبين موسى "لم يعطكم

موسى خبز السماء بل أبي يعطيكم خبز السماء الحق" (يوحنا ٦ : ٣٢).

وهكذا، فإن كان ذلك الذي كشف عن اسمه لموسى هو نفسه الذي يتمثل مع ذلك الذي يسير على الماء، فلماذا والحالة هذه يستحيل عليه أن يكون هو نفسه الله القادر على كل شيء والذي يقول هذه الكلمات الغامضة: "من أكل جسدي وشرب دمي فله الحياة الأبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (يوحنا ٦ : ٥٤)؟

إن معجزتي الخبز والسير على الماء مرتبطتان وتؤسان بالاسم المعطى ليسوع علاقة بين الأب ويسوع المرسل من قبله وبين خبز الحياة والحياة الأبدية وبين الإفخارستيا والقيامة.

هذه هي البصمة التي كانت تسم يسوع، عند الحديث عن خبز الحياة، بمسيحانية جديدة يلخصها يوحنا بجملة موجزة وقوية: "وكما أن الأب الحي أرسلني وأنا أحيى بالآب فكذلك الذي يأكلني سيحيا بي. هوذا الخبز الذي نزل من السماء غير الذي أكله آباؤكم ثم ماتوا. من يأكل هذا الخبز يحيا إلى الأبد" (يوحنا ٦ : ٥٧-٥٨). وفي نهاية رواية تكثير الخبز والحديث عن خبز الحياة، بقي الاثنا عشر فقط على إيمانهم بالمسيح. وقد عبّر بطرس عن ذلك بقوله: "إلى من نذهب يا رب وكلام الحياة الأبدية عندك" (يوحنا ٦ : ٦٨). وبالمقابل فإن عدداً من التلاميذ كفّوا عن اتباع يسوع (آية ٦٧)؛ فقد بدا لهم هذا التعليم لا يطاق وللحال يقيم يوحنا صلة مع يهوذا، ذلك الذي سوف يسلم يسوع (آية ٧٠)؛ لم تعد ساعة الألام بعيدة وسينتهي المشهد بمضمون درامي كما بدأ.

الكلمات التي تقال على الخبز

"وفي الليلة التي أسلم فيها أخذ الخبز فشكر وبارك وكسره وأعطاه لتلاميذه قائلاً:

"خذوا كلوا من هذا كلكم،

هذا هو جسدي الذي يُبذل من أجلكم"

(عبارات التأسيس في كل صلاة افخارستية)

"من يأكل هذا الخبز، يحيا للأبد" (يوحنا ٦: ٥٨). وكان بين الوعد بالحياة الأبدية وإتمام الخيانة التي ستقوده إلى الموت (آية ٧١) كانت هناك المائدة التي اشتها يسوع شهوة شديدة أن يأكل فيها الفصح مع تلاميذه (انظر لوقا ٢٢: ١٥) والتي وردت أيضاً في الأناجيل الإزائية. وخلال هذه المأدبة تم تأسيس سر الإفخارستيا. إن هذه المأدبة التي تم الاحتفال بها بصورة رمزية غامضة كانت توقّعا لحدث موت يسوع وقيامته.

ولكن هذه الأحداث التي هي أساس إيماننا اليوم لم تكن في البداية، بالنسبة لمعاصري يسوع، علامة الحب الفيّاض لإله يبذل حياته في سبيل من يحب. إذ كيف يبذل الإنسان نفسه دون أن يضيّعها (يفقدها)؟ إذن فبالنسبة لأول الشهود من أصل يهودي، كان فقد الحياة يعني إهمال الله للإنسان. وهذه المحنة لم تقتصر على الرسل وحدهم، إذ إن الأناجيل تروي لنا كم كان حزن يسوع لتصوّره لهكذا تخلّى، وجعلوا على لسانه ما ورد في المزمور ٢٢: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟". وقد سبق وترجم يسوع صلاته في بستان الزيتون بشكل استجارة أخيرة: "فماذا أقول؟ يا أبت نجني من تلك الساعة" (يوحنا ١٢: ٢٧).

ولكن الله يتحمل كل المخاطر في يسوع!

إن الخيار معروض: أن يَصْدُم أو أن يُصَدَم. وقد اختار يوحنا وها هو يتفق مع عبارة يسوع: "ليس لأحد حب أعظم من أن يبذل نفسه في سبيل أحبائه" (يوحنا ١٥: ١٧). إن وهب الحياة يعني بذلها! لقد بدأت آلام يسوع في أنس العلية (يوحنا ١٣). إن فعل "بذل" سوف يتكرّر فيما بعد بشكل مؤلم يطبع كل ما سيتبع بطابعه (يوحنا ١٨: ٢ / ١٨: ٣٠ / ١٩: ١١ / ١٩: ١٦). وعبر مسلسل الأحداث هذا، سيضع يهوذا والحراس والكهنة وبيلاطس أيديهم على يسوع ليسلموه الواحد إلى الآخر إلى أن يقدموه فريسة للغضب الأعمى لجمهور لا وجه له.

ولكن في ذلك المساء ليلة الآلام، اتخذ يسوع المبادرة. إنه هو السباق إلى بذل ذاته. لقد تمسك مسبقاً بموته القريب ليجعل من حياته هبة في الوقت الذي ما زال فيه حراً. إنه الإله الذي لا يمكن لشيء أن يحيط به والذي لا يسع الخليقة أن تحتويه ولا يمكن لخيال البشر أن يستوعبه. إنه وقد صار واحداً منا وارتبط بالحرية المخلوقة، نراه يجعل من عنصر أرضي (بعضاً من الخبز وقليلاً من الخمر) علامةً لحضوره وحبه: "هذا هو جسدي المبذول من أجلكم".

هذه هي العبارات التي قيلت بلهجة متواضعة واحتفالية للعهد الأخير. إن الكلمات هنا لا تتعلّق لا بالتفسير ولا بالشرح ولا بالمنطق، بل تتحني أمام ضياء الحدث عندما سيتأكد الفعل من أن الإيمان هو الشيء الوحيد الممكن.

جسد يسوع وخبز الإفخارستيا

لم تحتفل الكنيسة بالإفخارستيا إلا بعد موت يسوع وقيامته، لأن جسد يسوع القائم المقدم كغذاء ليس هو جسده التاريخي ولا جسده الممجد الجالس عن يمين الآب. إنه الخبز الذي صار افخارستيا، هذا الخبز الذي تُلفظ عليه كلمات التقديس التي بها نقول خيراً عن الله، لأنّ هذا الخبز يهبنا الحياة التي لا تنتهي. إنه الخبز الذي صار افخارستيا والذي من أجله نقدّم الشكر لله. وقد أعلن يسوع هذا في حديثه عن خبز الحياة محاولاً التأكيد على أن المسيح يسوع هو في الوقت عينه الخبز ومعطي الخبز. إنه الذي يشكر الآب قبل أن يعطي الخبز للجموع التي راحت تكيل له المجد والتسبيح. ولقد اتُخذ الكثير من الحيلة والحذر لئلا نخلط بسرعة بين "الجسد التاريخي" ليسوع وبين "الخبز الإفخارستي". ومع ذلك علينا ألا نفرّق بينهما كثيراً: ففي حين يشير يسوع بوضوح إلى الخبز الذي يصير جسده، فإن الخبز الذي صار افخارستيا يشير بوضوح إلى شخص يسوع ابن الله. وكان من التلاميذ من لم يقبلوا هذا المعنى فهجروا يسوع.

وتجدر الإشارة إلى الانفتاح على المستقبل الذي نلمسه في نهاية رواية التأسيس (مرقس ١٤: ٢٥، متى ٢٦: ٢٩، لوقا ٢٢: ١٧): "لن أشرب بعد الآن من عصير الكرمة هذا حتى ذلك اليوم الذي أشربه جديداً في ملكوت الله". إن هذه النبوءة تشير إلى مجيء ملكوت الله في نهاية الزمان، وهي كذلك تحذّرنا منذ الآن من أن موت يسوع وذهابه إلى الأب يوم الصعود ليسا نهاية قصتنا معه؛ فهو سيعود. وقد جَعَلَتْ كلمات يسوع هذه عيون المشاركين في العشاء الأخير وعيوننا نحن الآن تتجه إلى المجيء الأخير للمسيح في المجد.

إن انتظار هذا اليوم يفتح زمن الكنيسة وسفَرها عبر العصور. ولكن في غضون ذلك، فإن الأبدية تقيم منذ الآن في قلب الكنيسة بسبب حضور القائم وحضور جسده ودمه ينبوع الحياة الأبدية.

الخبز الافخارستي والعودة النهائية للمسيح

هذه هي العلاقة بين العشاء الأخير وبين زمن الكنيسة حيث صعب على القديس بولس التفريق بين رسالة التبشير بموت يسوع وإحياء الذبيحة الذي هو إعلان عن هذا الموت (١ كورنثوس ١٢: ٢٦). ونكتشف هنا نقطة جوهرية: إن الكنيسة تحتفل بما تبشر به. وانطلاقاً من طقوسها، فإن رواية الأحداث التي تنقلها لنا الكنيسة تتعلق بما يعيشه الذين يحتفلون بها. فهي أي الكنيسة، ترسمهم للخدمة والمحبة بالطريقة

التي عاش بها يسوع حياته كإنسان أي في التاريخ. وهكذا ينكشف لنا عمق كلمات يسوع حين تأسيس الإفخارستيا في العشاء الأخير.

رواية تأسيس الإفخارستيا

إن الدراسة الواعية لرواية تأسيس الإفخارستيا كما وردت في العهد الجديد (في أناجيل متى ومرقس ولوقا وفي رسالة بولس إلى أهل كورنتوس) تعطينا عدة عناصر وخاصة منها الدراسة المقارنة للنصوص الأربعة التي يمكن وصفها بالطقسية.

ومن بين العبارات التي تنقلها لنا هذه النصوص الأربعة، يقول يسوع في جملة صغيرة موجهة إلى التلاميذ ولنا نحن أيضاً حين يقول الكاهن هذه الكلمات: "هذا هو جسدي". ولم يسمح أحد من التلاميذ لنفسه أن يغير هذه العبارة، فهي تتضمن تعليماً هاماً تسبقه وتصحبه وتتلوه حركات أربعة توضح معناه:

- يسوع يأخذ الخبز.

- يلفظ كلمات التقديس.

- يكسر الخبز.

- يعطيهم إياه.

"هذا هو جسدي". كل كلمة منها تحمل مدلولاً في ذاتها.

"هذا"

إن ما كان يسوع ممسكاً به بيديه ويريه للجميع كان خبزاً. إنه وبنفس الوقت عنصر من الخليفة خلقه الله وأراده، وهو حصيلة سلسلة من المبادرات البشرية من بذار إلى حصاد إلى تحويل القمح إلى خبز. إن مباركة يسوع للخبز، تشير إلى أنه عطية من الله. إنه يقدم فعل شكر كما اعتاد اليهود أن يفعلوا في بداية كل مأدبة. ويشهد بذلك سفر التثنية ٨: ١٠. ولن يتخلى يسوع عن هذا التقليد لحظة مشاركة تلاميذه في آخر مأدبة له معهم.

إن هذا الخبز المكسور والموزع على الجميع يوحد الذين يأكلونه. وقد صار هذا الخبز الذي ورّعه عليهم يسوع عامل شركة بينهم وبينه.

"جسدي"

إن هذه الكلمة تشير إلى شخص يسوع؛ إلى شخص يسوع كله؛ أي ذلك الإنسان الذي يتكلم ويتصرف ويفكر، أي كل ما يتعلق بالإنسان. ولكنه يقدم لنا هذا الشخص ضعيفاً محكوماً عليه بالموت بحسب ظروف كل جسد حي. وقد أعلن موته هذا في بداية العشاء الأخير كما ورد في مرقس (١٤: ١٧).

"هو"

إن هذه الكلمة تشير إلى العلاقة بين الخبز والجسد. ولكن ما طبيعة هذه العلاقة؟ هل

هي علاقة هويّة؟ وهل يصبح الخبز جسداً؟ ولكن لا أرى أمامي سوى الخبز دائماً! ما الذي أتناوله في كل تناول؟ توجد في الكتاب المقدس طريقة معينة تبرز الهوية المشتركة بين حقيقتين: فمثلاً كان الأنبياء يستخدمون الإيماء للإعلان من خلال الحركات عما يريدون قوله (انظر مثلاً أعمال ٢٢: ١١)، وذلك لتبليغ رسالة أو لتفسيرها. ولكن الأمر يختلف فيما يخص الخبز والجسد.

يسوع يطبّق ما يقوله!

إن كلمات يسوع طابعها النبوي هي الأخرى. إنها تخبرنا بوضوح بأن أكل هذا الخبز يعني الاتحاد بجسد يسوع. ولكن الأمر لا يتعلق فقط بالقول: إن هذا الخبز غذاء، وإلا لكان الأمر مبتذلاً، لأن الإعلان هنا يريد أن يقول شيئاً آخر عما يقوله عادة عن الخبز. إنه يعلن بأن هذا الخبز هو جسد، ولكن ليس جسد أي كان يمكن أن يكون غذاء!

لن أستطيع التفكير بأن ذلك ممكن إذا لم تكن لدى القائل السلطة الكامنة لتحقيق ما يقول! وفي الواقع فإن كلام يسوع يحقق ما يقول، وذلك لأن يسوع ابن الله هو القائل. هذا ما أراد أن يقوله لنا الإنجيليون والقديس بولس. ولذلك نراهم يبذلون أقصى الجهد ليقدموا يسوع على أنه المسيح، ليس المسيح بالصورة التي كانت متوقعة في التقليد اليهودي، بل ابن الله نفسه. ومن هنا كانت أهمية الروايات المقدمة أعلاه حيث يبذل الإنجيليون جهدهم لإظهار هوية يسوع. وتقودنا هذه الروايات إلى أن نستخلص أنّ ما قاله حق. إنه يتكلم كمن له سلطان. إذن عليّ أن أقرّ بأن كلام يسوع عن الخبز يحقق

ما يقوله، وقد سمعت ما سمعته جيداً.

إنه فعل إيمان

تكمن الصعوبة بالنسبة إلينا في التقاطع الحاصل بين ما تلحظه حواسنا وبين حدث الخلاص المحتقئ به عبر الحركات والكلمات الملفوظة. إن حواسنا تلحظ دائماً الخبز (الذي تمسكه اليدان والمقسّم والمأكول) في حين أن آذاننا سمعت كلمة جسد بدلاً من الخبز الذي تراه أعيننا. ولكن الظاهر لا يمكنه أن يغطي الحقيقة كلها.

علينا أن نعمل الفكر لنفهم أن هذا الخبز الذي صار جسداً هو خبز الشركة مع كل الكون، ولكنه بنفس الوقت خبز شركة مع الله خالقه بيسوع المسيح. إن هذا الخبز وهذا الجسد يشكلان حدث خلاص.

إن هذه النقطة التي تتخذ شكل دعوة إلى إظهار إيماننا تتحقق في الاحتفال الليتورجي بقوة الروح القدس. فهو الذي يطلبه الكاهن من الله بالصلاة (وتدعى هذه اللحظة: استدعاء الروح القدس). ويُرفقُ الكاهن صلاته بوضع الأيدي وكأنني به يترك مسافة للروح القدس ليفعل ما لا يمكن لغيره أن يفعله: إذ سيصير هذا الخبز سرّاً حضور يسوع.

وإذا كان علينا أن نقول بأنه لا العشاء الأخير (الذي رأيناه بطريقة منفردة) ولا الطقس الليتورجي لا يكونان حدث الخلاص إلا إذا اعتمدا على حقيقة موت وقيامه المسيح، سيكون علينا أيضاً أن تشير إلى أنه لا يمكن لأي من التلاميذ أن يحقق حضور الجسد، أي حضور يسوع، لأن إعلان هذه الحقيقة يتم بقوة الروح القدس الذي بدونه لا

يمكن لخبز الإفخارستيا أن يصير جسداً ولا يمكن لأي كان أن يقول إنه علامة حضور يسوع، إذ لا يمكن لأحد بدون الروح القدس أن يميّز هذا الوجود على حد قول القديس أوغوسطينوس. هذا هو سر الإيمان. هذا هو الاسم الجديد لعشاء الفصح في العهد الجديد.

"من أجلكم ومن أجل الكثيرين"

إن عبارات التأسيس توسّع مدى هذا السر بعلاقة تضمينية مباشرة تتخذ شكل دعوة أو تحذير في مجمع الرسل.

* ففي متى ومرقس نجد الدعوة إلى أخذ الخبز: ".خذوا". إنها دعوة إلى التلقي، إلى الأخذ باليد، وليس إلى أن نبقي مجرد مستمعين. إن الالتزام قوي هنا، إنه موجّه إلى الكثيرين وهو يتطلب منا فعلاً وجواباً.

* وفي بولس ولوقا، يتعلق الأمر بتحذير، سببه أولئك الذين كانوا يسمعون... "من أجلكم" إن هذا الخبز الذي هو جسد، هو مقسم ومحطّم ومقدّم. أنتم معنيون بذبيحة الجسد المبذول. ولن يكون لهذا معنى إلا إذا بُذل لكي تكون لكم الحياة والسلام. وإذا ما بدا أننا كنا حتى الآن بعيدين إلى حد ما ومجرد مستمعين للكلمات عن الخبز، فإن ذلك لم يعد ممكناً الآن لأنّ موت يسوع في الجسد هو من أجلنا. وفي رواية الكلمات على الخبز، فإن متى هو الوحيد الذي يحدّد الهدف النهائي للخبز المتلقى: "كلوا!". وما ذلك إلا لأن الكلام واضح عند الإنجيليين الآخرين. أما فيما يتعلق بالكلمات على

الكأس فسوف يكون الكلام أوضح إذ يتعلق الأمر بالشرب.

ولكن التعبيرين: "خذوا.." و "من أجلكم"، يشيران إلى الطابع العلائقي للمشهد. فمتى يشير إلى دعوة موجهة إلى الجميع "من أجل الكثيرين" لولوج هذا السر من الداخل. إن هذه العبارات تجعل من سامعيها الموجهة إليهم مدعويين وشهوداً. ومن الآن وصاعداً يقول القديس يوحنا: يوجد في سر الإيمان هذا إقامة متبادلة للمسيح في من يتلقاه وبالعكس: "من أكل جسدي وشرب دمي ثبت فيّ وثبت فيّ" (يوحنا ٦ : ٥٦).

أسئلة للحوار

١- بعد رواية إعلان التأسيس (الكلام الجوهري) يعلن الكاهن: "عظيم هو سر الإيمان" فما الذي تعنيه لكم هذه الكلمات؟

٢- يقول القديس أوغسطينوس للمؤمنين عند حديثه عن تناول: "كونوا ما تلقيتم" فما الذي يريده بقوله هذا؟

٣- إن كلمة "افخارستيا" تعني الشكر. فلماذا نشكر الله في القداس؟

٤- عند كسر الخبز، لماذا تدعونا الكنيسة إلى ترتيل: "يا حمل الله...؟"

صلاة لأجل اللقاء

إنجيل يسوع المسيح حسب القديس يوحنا ٦: ١-١٥

وعبر يسوع بعد ذلك بحر الجليل (أي بحيرة طبرية). فتبعه جمعٌ كثير، لما رأوا من الآيات التي أجراها على المرضى. فصعد يسوع الجبل وجلس مع تلاميذه. وكان قد اقترب الفصح، عيد اليهود. فرفع يسوع عينيه، فرأى جمعاً كثيراً مُقبلاً إليه. فقال لفيلبس: "من أين نشترى خبزاً ليأكل هؤلاء؟" وإنما قال هذا ليمتحنه، لأنه كان يعلم ما سيصنع. أجابه فيلبس: "لو اشترينا خبزاً بمائتي دينار، لما كفى أن يحصل الواحد منهم على كسرة صغيرة". وقال له أحد تلاميذه، أندراوس أخو سمعان بطرس: ههنا صبيٌّ معه خمسة أرغفة من شعير وسمكتان، ولكن ما هذا لمثل هذا العدد الكبير؟" فقال

يسوع: "أفعدوا الناس". وكان هناك عشبٌ كثير. فقعد الرجال وكان عددهم نحو خمسة آلاف. فأخذ يسوع الأرغفة وشكر، ثم وزَّع منها على الآكلين، وفعل مثل ذلك بالسمتين، على قدر ما أرادوا. فلما شبعوا قال لتلاميذه: "اجمعوا ما فضل من الكسر لئلا يضيع شيءٌ منها". فجمعوها ومأوا اثنتي عشرة قفة من الكسر التي فضلت عن الآكلين من خمسة أرغفة الشعير. فلما رأى الناس الآية التي أتى بها يسوع، قالوا: "حقاً، هذا هو النبي الآتي إلى العالم". وعلم يسوع أنهم يهَمُّون باختطافه ليقيموه ملكاً، فانصرف وعاد وحده إلى الجبل.

واجب المجالسة:

(١) يدعونا المسيح إلى الذهاب معه "حتى أقصى الحب". ماذا يعني ذلك لنا في هذا اليوم؟ وهو يدعونا بشكل خاص إلى أن نكون أمناء للآخرين كما هو أمين لنا. كيف نحن اليوم أمناء، الواحد تجاه الآخر؟ في الأشياء الكبيرة والصغيرة؟ هل نحن أمناء للمسيح؟

٢) هل نحن أمناء لملاقاة المسيح في الإفخارستيا؟ بأي تواتر؟ هل يتم ذلك يوم الأحد فقط أم خلال الأسبوع كذلك؟

قاعدة الحياة

ما بإمكانني فعله للتقدم في أمانتي للقاء المسيح في الإفخارستيا؟



الفصل الخامس

عماوس والإرسال في مهمة (لوقا ٢٤: ١١-٤٩)

درب للتأمل

للإعداد مسبقاً:

عقب التجديد الطقسي الذي بدأ تطبيقه بعد المجمع الفاتيكاني الثاني، تم تنظيم قراءة كلمة الله يوم الأحد في ثلاث دوائر للسنوات (أ - ب - ج) وتعرض لنا كل من هذه الدوائر نصوصاً مختلفة بحسب زمن الأعياد أو الزمن الاعتيادي وبحسب الآحاد.

وقبل أن تشرعوا في قراءة إنجيل تلميذي عماوس، يمكنكم أن تكتبوا لوحة لمختلف القراءات بحسب الآحاد وبحسب السنوات. وسوف تلاحظون كيف أنّ هذه القراءات منظمة فيما بينها: قراءة مستوحاة من أقوال الأنبياء أو حدث من العهد القديم وأخرى من شاهد من الكنيسة الناشئة ومن الإنجيل.

إن ليتورجيا الكلمة هي إحدى أهم اللحظات في الاحتفال الافخارستي. وإنّ أولى أهدافها أن تكشف لنا عن ماهية الله ورواية المعجزات التي حققها من أجلنا. ولكن أهميتها تكمن أيضاً في ما يمكن أن تحدثه فينا كلمة الله، هذه الكلمة التي تجعل منا مرسلين. ونرى ذلك في قراءة صلاة أو أخرى أو في البركة التي يعطيها الكاهن في نهاية الذبيحة (راجع كتاب القداس).

"وأنتم شهود على ذلك" (لوقا ٢٤ : ٤٨)

إن قصة تلميذي عماوس الجميلة هي قصة الكنيسة الناشئة غداة الفصح. ومن بين كل الشهادات التي حصل عليها القديس لوقا، يُظهر لنا عبر هذه القصة كيف أن الكنيسة مبنية ومنظمة عبر ليتورجيا الكلمة والإفخارستيا.

ولكي نفهم ذلك، علينا أولاً نثبت أنظارنا حصراً على كسر الخبز في نهاية الحدث، إذ إن كل مرحلة من مسير التلاميذ ابتداء من لقائهم بيسوع والعشاء معه والعودة إلى أورشليم، تقدّم لنا لمحة عما كان يتحقق آنذاك في المجامع المسيحية. وتبدو لنا مجمل الروايات على شكل تبشير رسولي نجد آثاره في أماكن كثيرة من أعمال الرسل. وكانت خدمة الكلمة هي المكان الأمثل للوعظ الذي يعلنون خلاله سرّ يسوع. ويكفي أن نحلل الرواية لنكتشف هدفها.

* فمن البداية، نرى أن هناك نقطة تركيز قوية جداً على الأحداث التي جرت في أورشليم. وقد خلقت هذه الأحداث بلبله كبيرة في جماعة التلاميذ الذين راحوا يفسرون ما جرى. ويشير لوقا إلى أنهم كانوا يقومون بذلك بحزن شديد. ولكن يسوع الذي كان محور رجائهم التحق بهم في الطريق.

* يشترك يسوع في الحديث معهم ويتحرى سبب قلقهم متّبعاً سرداً دقيقاً للأحداث ينذر على أي مراقب أن يفعلها. وقد أرفق حديثه بتسليط الضوء على أسباب حزنهم وإحباطهم: "وكنا نحن نرجو أنه هو الذي سيفتدي اسرائيل" (لوقا ٢٤ : ٢١)، "فذهب بعض أصحابنا إلى القبر، أما هو فلم يروه" (لوقا ٢٤ : ٢٤). وبالرغم من رواية بعض

النسوة اللواتي يؤكّدن أنه حي فإن أحداً لا يعرف ماذا حلّ به!.

* يتعجب يسوع ويدعوهم إلى عدم الوقوف عند وصف الأحداث التي تظاهر بعدم معرفتها محاولاً ربطها بمجمل مخطط الخلاص الذي كان منذ البداية". ألم يكن عليه أن...؟" (لوقا ٢٤ : ٢٦). وها هو يعيدهم من خلال قراءة جديدة ثانية للتاريخ المقدس، إلى موروثهم الإيماني التقليدي. ولكننا لا نلمس الأهمية الكبيرة لنقطتين صغيرتين إلاّ في نهاية الرواية: حضور يسوع في التوراة وعودة التلاميذ إلى أورشليم.

حضور يسوع في التوراة

"ولما قربوا من القرية التي يقصدانها، تظاهر يسوع أنه ماضٍ إلى مكان أبعد. فألخا عليه للبقاء... فدخل ليملكتهما" (لوقا ٢٤ : ٢٨). ويروي لنا لوقا بكلمات وجيزة كسر الخبز وكيف أن التلميذين قد عرفاه عند هذه الحركة ولكنه غاب عنهما في تلك اللحظة، فاكتشف التلاميذ آنذاك حضور يسوع الذي كان محسوساً طوال الطريق من خلال تفسيره للكتب: "أما كان قلبنا متقدماً في صدرنا حين كان يحدثنا في الطريق ويشرح لنا الكتب؟" (لوقا ٢٤ : ٣٢). وعلى طريق عماوس يستخدم يسوع مرة أخرى كل الغنى التربوي في الله لكي يدعو التلاميذ إلى فهم هذه الكلمة، فنراه بداية يعود بهم من جديد إلى موروثهم الإيماني ابتداء من موسى وانتهاء بالأحداث التي تخصّه هو أي معاناته وآلامه. إنه يقودهم إلى ما بعد الأحداث التي جرت في أورشليم. إن لمفتاح التفسير جذوراً تخصّهم أيضاً لأنها تلمس رجاء قائماً في نفوسهم: "وكنا نحن نرجو أنه هو الذي سيفتدي إسرائيل (آية ٢١).

وبالفعل، فإن العودة إلى تاريخ الوحي يكشف عن الوحدة والديمومة اللتان تتحققان في كل افخارستيا من خلال قراءة كلمة الله، لأن استنكارها لا يعني القيام بدور عالم آثار، بل يكشف مكونات الكنيسة والمؤمنين بأخص ما فيهما: الله حاضر في كلمته. وهذه الكلمة تصبح المكان الذي نلتقي فيه معه وتصبح كذلك غذاء للمؤمنين المجتمعين في الكنيسة بهدف سماعها وقبولها.

والغاية من تسليط الضوء على الأحداث التي عاشوها هي جعل انضمامهم إليها ممكناً. وتجدر الإشارة إلى أن يسوع يلفت نظر تلميذي عماوس إلى ترابط هذه الأحداث، إذ كان من الضروري صياغة هذا الترابط بين رسالة الأحداث الحاضرة (موت وقيامة يسوع) وبين الوحي (تاريخ شعب اسرائيل مع إلهه).

ولقد تصدّت الجماعة المسيحية الأولى كما تفعل جماعتنا الآن في كل ليتورجيا كلمة لعمل فكري كبير. وقد ارتكزت على الشعور الذي عبّر عنه تلاميذ عماوس في ذلك المساء عند كسر الخبز، إذ بدأت الجماعة المسيحية بسماع ربها لتتفتح على استيعاب وفهم الكتب. ولا تتم الدعوة إلى الإيمان إلا من خلال التوافق بين الفعل والقلب.

"إن ابنك يسوع مبارك حقاً وهو الذي يقف في وسطنا عندما نجتمع باسمه: إذ كما فعل سابقاً مع رسله، فإنه يفتح لنا الكتب ويشاركنا الخبز" (الصلاة الإفخارستيا للمناسبات الخاصة).

العودة إلى اورشليم

وتظهر النقطة الثانية مباشرة، إذ لم يطق التلميذان كتم فرحتهما. وهكذا يكون الأمر عندما يضني القلبُ العقلَ إذ لا يدعه في مكانه. وللحال وبالرغم من الساعة المتأخرة وحلول الظلام، عادا إلى أورشليم لنقل البشرى إلى الرسل ورفاقهم. ومع ذلك فإن مغامرة التلميذين لن تنتهي في هذه اللقاءات البسيطة، إذ وحين سيعودان ليحدثا رفاقهما، سيلتقي بهما يسوع أيضاً وسيأخذ أمام الجميع قطعة من السمك المشوي ليأكلها ليثبت لهم أنه ليس شبحاً. ومن جديد يفتح أذهان الجميع لفهم ما قالت عنه الكتب ويلخص كلامه للجميع: "وأنتم شهود على ذلك" (لوقا ٢٤: ٤٨).

إذا عدنا قليلاً إلى الوراء، فسنلاحظ أن معظم روايات الظهور لها بنية مشتركة: إنها تسلط الضوء على الدينامية نفسها: مبادرة يسوع ومعرفته ومن ثم إرسال في مهمة (انظر اكتشاف القبر الفارغ من قبل المجدلية. يوحنا ٢٠: ١١-١٨).

وإذا صحَّ أن الحدث الخاص بتلميذي عماوس ينتهي بوصولهما إلى أورشليم، فمن المهم ألا نضيّعهما في الطريق إلى مسعاهما، إذ سيكونان هناك عندما سيجتمع يسوع مع الجماعة، كما لو أنه كان يتوجب على خبرتهما الخاصة أن تتحد بخبرات باقي الرسل والتلاميذ، وكما لو أن شمولية الخبرة ستؤكد الأساس المتين للإيمان: ثم يأتي الإرسال في مهمة أمام الكنيسة المجتمعة، مهمة أكلها يسوع إلى الكنيسة كلها وسيدعها الروح القدس الموعود بقوته (لوقا ٢٤: ٤٩).

وهكذا، كل ما في هذه الرواية من أحداث هدفه سرد ما هو أساسي وإعطاء تفسير لكل الأحداث التي عاشها يسوع. صحيح أنه قدّم نفسه كإنسان لدرجة أنّ الكثيرين لم يعرفوا

فيه على المسيح المرسل من الآب، وصحيح أيضاً أنه غاب عن عيون التلاميذ الذين وعدهم بالبقاء معهم، ولكن لوقا يعلمنا أننا سنتعرف عليه ونلتقي به من الآن وصاعداً من خلال سماع كلمته ومن خلال كسر الخبز. وهذا ما لم تغفل الجماعات المسيحية عن فعله منذ ذلك الزمان.

إن عدم مشاهدة يسوع لن يدفعنا إلى رفض حضوره ولقائه، فالإفخارستيا تعالج هذا. وكذلك فإن لقاءه لا يعفينا من التبشير به لأولئك الذين ما زالت عيونهم عاجزة عن التعرف عليه. وكذلك فإن الاختبار الشخصي مهما كان روحياً لا يمكنه أن يجعل من المسيحي شاهداً. ولكن، وفي قلب الكنيسة المجتمعة للصلاة، وفي قلب الاحتفال الأسراري الذي سلطت عليه قصة عماوس الأضواء، فإن الشهادة تُقبل كأمر مهمة. وسيدكرنا لوقا في قضية انتخاب متيا (أعمال ١: ٢١-٢٢) بالمعايير القائمة على الاختبارات.

وما يزال الأمر على هذا المنوال حتى أيامنا. وعلينا أن نذكر أنفسنا بذلك، فمع الكنيسة المجتمعة للصلاة والمحتفية بالإفخارستيا، نتقبل الإرسال في مهمة عندما نسمع الكاهن في نهاية القداس يبارك ونسمع الشماس يعلن: "أذهبوا بسلام المسيح".

الإرسال في مهمة

إن كلمة "أذهبوا بسلام المسيح" في الليتورجيا المعاصرة هي الكلمة التي يقوم عليها طقس الإرسال. إنها كلمة مختصرة تلي البركة الثالوثية باسم الآب والابن والروح

القدس.

هناك حركةٌ تصحب طقس الإرسال من الإفخارستيا. وعبر زمن طويل كانت هذه الحركة هي وضع الأيدي. ولكن وابتداء من القرن الرابع عشر تحولت إلى إشارة الصليب. وفي الحالتين يتعلق الأمر بالتذكير بقوة الروح القدس مصدر كل النعم اللازمة لإتمام الطريق الذي علينا عبوره.

اذهبوا بسلام المسيح

منذ بداية الجماعات المسيحية الأولى، كان رئيس المجلس يعلن في النهاية أنه بإمكان الجماعة أن تذهب. إنها عبارة قديمة كانت مستخدمة في العالم الوثني. إنها تعبير قانوني موروث عن القانون الروماني: "رُفعت الجلسة". وفي طقس القديس امبروزيوس أسقف ميلانو في القرن الرابع، اتخذ التعبير صيغة: "باسم المسيح، لنذهب بسلام".

وفيما بعد نأفستها عبارة "اذهبوا فقد انتهى القداس". إن ظهور هذه التعبيرات في

المفردات الليتورجية للمسيحيين ملفت للنظر، فكلمة قداس Messe من اللاتينية Messa وتعني "التفرق" أو "الانصراف" أي لحظة تفرق الجماعة. وهكذا وعبر عشرات السنين أطلقوا على اللحظة التي يجتمع فيها المسيحيون لإحياء الذبيحة كلمة تشير إلى اللحظة التي يزمعون فيها على الانصراف! إن الإفخارستيا ستنتشر قبل أن يوكل إلى المحتفين بها مهمة نشر ما تعلموه خلال الاحتفال، أي التضحية بحياتهم في خدمة إخوتهم كما فعل المسيح.

إن الإفخارستيا ليست في الخدمة المباشرة لتبشير العالم. إنها في البداية ذكرى، إنها احتفال أمام الله بالبشرى الحسنة للخلاص. وهي تجد بهذا مبرر وجود كافٍ. ولا تمثل الإفخارستيا كل شيء في الحياة المسيحية حتى لو كانت هي محورها ومصدرها. ونظراً لكونها هي المصدر، فإن كل مسيحي يكتشف فيها أن عليه واجب نشر الإنجيل. إن الإفخارستيا تدفع بنا إلى العالم لكي نحمل بدورنا الشهادة التي طلب يسوع من تلميذي عماوس أن يعيشاها.

وهكذا نستطيع أن نغادر بلا خوف المكان الذي احتقلنا فيه بالإفخارستيا كما ورد على لسان راهب شرقي: "ابق بسلام يا هيكل الله المقدس. إذ لا أدري إن كنت محظوظاً بالاقتراب منك ثانية، تنازل يا رب وهبني أن أراك في الكنيسة السماوية".

إن الانفتاح على المستقبل مقدّم هنا لكل مسيحي، مستقبل يمكنه فيه أن يوظف حرية

في مجرى التاريخ لكي يجسد فيه الوحدة، وحدة بين مشيئة الله وحرية الإنسان، وحدة
حيكت خيوطها في الاحتفال الافخارستي حيث تتعانق الأبدية والزمان وتبدو النعمة
المعطاء كمهمة علينا إنجازها.

ولكن إذا كان الله أزلياً، فإن ذلك لا يعني أنه غريب عن مغامرة تاريخنا. إنه موجود
في واقع الزمان الذي بقي لنا لكي نعيشه لأنه يبدعه معنا كما لو أنه لا يعرف مسبقاً
صيرورة الأمور. إنه دائم البحث عن كل واحد منا وعن الكنيسة كلها. وهكذا تضحى
الرسالة رحلة للقاء الأب يشاركنا فيها يسوع والروح القدس. ومن هنا فإن رواية عماوس
تشكل الوجه لهذه الرحلة. إننا الآن في الأزمنة الأخيرة. أزمنة العنصرة. إذن فإن ما
يعرضه علينا يسوع ليست هي الطقوس فقط بل الحياة معه طيلة الرحلة". وهذا ما
سيجعل منا تلاميذاً وشهوداً. وسيأتي اليوم الذي ننتظره حيث سيعود في المجد.

"إذا كانت الحياة تسير مع التلميذين، فإنها لم تكن قد نفذت إليهما بعد"

(القديس أوغسطينوس)

أسئلة للحوار:

١- هل لاحظتم نقاطاً مشتركة بين بنيتي رواية عماوس ورواية الإفخارستيا: لقاء،
استنكار عمل الله الذي نقلته لنا ليتورجيا الكلمة، كسر الخبز، إرسال؟

وازنوا بين مجريات القداس ومجريات رواية تلميذي عماوس. ما هي النقاط المشتركة
وما هي نقاط التقارب والاختلاف؟

- ٢- ما هي العلامات والتأملات التي نستطيع من خلالها أن نقول أنّ المسيح حاضر؟
- ٣- هل يمكن "الجماعة" أن تكون ما وصفها بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنتوس (١٢ : ١٢-٢٧)؟ وماذا يُلزمنا ذلك؟
- ٤- كلمة الله: لماذا نقول بعد قراءة الإنجيل: "التسبيح لك أيها المسيح" وليس "التسبيح لهذه الكلمة التي معناها للتو؟
- ٥- الخبز والخمر: بفضل أي تدخلٍ يمكن أن يصبحا علامة لحضور المسيح؟
- وبالعودة إلى صلاة استدعاء الروح القدس. في أي وقت من القداس تظهر هذه الصلاة؟ ولماذا نرفعها إذا كان الروح القدس هو محورها؟

صلاة لأجل اللقاء

إنجيل يسوع المسيح حسب القديس لوقا ٢٤ : ١٣-٣٢

وإذا باثنين منهم كانا ذاهبين، في ذلك اليوم نفسه، إلى قرية اسمها عماوس، تبعد نحو ستين غلوة من أورشليم. وكانا يتحدثان بجميع هذه الأمور التي جرت. وبينما هما يتحدثان ويتجادلان، إذا يسوع نفسه قد دنا منهما وأخذ يسير معهما. على أن أعينهما حُجبت عن معرفته. فقال لهما: "ما هذا الكلام الذي يدور بينكما وأنتما سائران؟" فوقفا مكتئبين. وأجابه أحدهما واسمه قلاوبا: "أأنت وحدك نازلٌ من أورشليم ولا تعلم الأمور التي جرت فيها هذه الأيام؟" فقال لهما: "ما هي؟" قالوا له: "ما يختص يسوع الناصري،

وكان نبياً مقتدرًا على العمل والقول عند الله والشعب كله، كيف أسلمه عظماء كهنتنا ورؤساؤنا ليحكم عليه بالموت، وكيف صلبوه. وكنا نحن نرجو أنه هو الذي سيفتدي إسرائيل ومع ذلك كله فهذا هو اليوم الثالث مذ جرت الأمور. غير أن نسوة منا قد حيرننا، فإنهن بگرن إلى القبر فلم يجدن جثمانه فرجعن وقلن إنهن أبصرن في رؤية ملائكة قالوا إنه حي. فذهب بعض أصحابنا إلى القبر، فوجدوا الحال على ما قالت النسوة. أما هو فلم يروه". فقال لهما: "يا قليلي الفهم وبطيئي القلب عن الإيمان بكل ما تكلم به الأنبياء. أما كان يجب على المسيح أن يعاني تلك الآلام فيدخل في مجده؟" فبدأ من موسى وجميع الأنبياء يفسر لهما في جميع الكتب ما يختص به. ولما قربوا من القرية التي يقصدانها، تظاهر أنه ماضٍ إلى مكان أبعد. فألحًا عليه قالوا: "أمكث معنا، فقد حان المساء ومال النهار". فدخل ليمكث معهما. ولما جلس معهما للطعام، أخذ الخبز وبارك ثم كسره وناولهما. فانفتحت أعينهما وعرفاه فغاب عنهما. فقال أحدهما للآخر: "أما كان قلبنا متقدًا في صدرنا، حين كان يحدثنا في الطريق ويشرح لنا الكتب؟"

واجب المجالسة

- ١- رسالتنا الزوجية: ماذا يعني أن نشهد كزوجين؟ ما هي الشهادة الخاصة المطلوبة منا كزوجين؟ هل نعي أن الطريقة التي نربي بها أولادنا يمكن أن توجه بناء العالم؟
- ٢- كيف نجعل أولادنا يكتشفون الإفخارستيا (أو أحفادنا أو الأولاد المحيطين بنا)؟ كيف نعدّهم لذلك؟ كيف نرد على استفهاماتهم؟

قاعدة الحياة

محاولة الحوار حول موضوع الإفخارستيا مع أولادنا أو أحفادنا أو أولاد آخرين محيطين بنا.



الفصل السادس

عبارات الإيمان التي تلقيناها

درب للتأمل

للإعداد مسبقاً:

إن الهدف من هذا الفصل الأخير هو التوضيح أن الليتورجية عامة والإفخارستيا خاصة هما عبارة عن إعلان إيمان.

- ما هي بنظركم هذه الأحداث المؤسسة التي تكمن في قلب الرسالة التي نحن شهود عليها؟ اكتبوا من ذاكرتكم قائمة بأهم أربعة أحداث.

- وبعد ذلك، ابحثوا محاولين تحديد هذه الأحداث في كتاب أعمال الرسل (خطبة بطرس: أعمال ٢: ١٤-٣٦ / ٣: ١٣-٢٦ / ١٠: ٣٦-٤٣). وعلى أي حديث اعتمد بطرس ليقدم لنا رسالة يسوع؟

- ولكي تكملوا مراجعتكم يمكنكم أن تقرأوا الصلاة الإفخارستية الرابعة. ما الأحداث التي تذكر بها هذه الصلاة الطويلة؟ اقرأوا بوجه خاص الصلاة التي تلي كلمات التقديس. ألن تجدوا واحدة منها ناقصة؟ لماذا؟ وما هي هذه العبارة؟ (ستجدون

الجواب في الفصل الأول الذي يتحدث عن أيام الفصح المقدس الثلاثة).

"فإني تلقّيت من الرب ما بلّغته إليكم، وهو أن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزاً وشكر، ثم كسره وقال: ... " (كور ١١ : ٢٣).

لقد صاغ المسيحيون الأوائل رويداً رويداً الكلمات والتعبير التي أصبحت تخصهم وحدهم وذلك للتعبير عن إيمانهم ولتسبيح الله.

وكان أغلبهم متجذراً باليهودية. ولكن هذه الحركات والعبارات كانت تتكشف عن معنى جديد بنظر التلاميذ الذين حملوا التفسير الجديد.

وكمسيحيين معاصرين، فإننا نعزو كل الأمور إلى يسوع نفسه وهذا صحيح في جزء منه، ولكن التعبير الإيمانية التي نجدتها في النصوص أو المستخدمة في اجتماعات الصلاة . كعبارات كسر الخبز . فهي نتيجة إعمال كبير للفكر وهي موحاة من الروح القدس الذي كان يكشف جدّة رسالة وسرّ يسوع مع الأيام. وكانت الجماعة الأولى تتأمل في هذا السر وتحتفل به. أمّا المصادر الرئيسية التي يمكن أن نستقي منها اليوم العناصر الأساسية لهذا الإيمان المسيحي الوليد فهي نصوص العهد الجديد وبعض الشهادات من جماعات الصلاة. وتعطينا هذه النصوص في القرون الأولى فكرة عن الأسلوب المتبع لإحياء الذكرى ولجعل التقليد الموروث عن الرسل حاضراً فيما يتعلق بيسوع كمسيح وكابن لله. وهكذا نجد القديس بولس ومنذ الرسالة الأولى إلى أهل

كورنتوس حوالي العام /٥٥/، نجده يشير إلى التقدير الكبير الذي كان يحيط بهذا التقليد وباحترامه، في الوقت الذي كان فيه بعض أعضاء الجماعة يبتعدون عنه. وبفضل سوء سلوك الكورنثيين فإن هذه الرسالة تنقل لنا واحداً من النصوص الأربعة عن تأسيس الإفخارستيا (كورنتوس ١١: ١٧-٣٤)، إنها كلمات الإيمان.

ويتم استخدام هذه العبارات والاحتفال بها اليوم في قلب ما تسميه الليتورجيا الصلاة الإفخارستية. ولكن هذه الصلاة تضيف الكثير إلى العبارات المعزوة إلى يسوع مساء الخميس العظيم، فهي مسبقة ومتبوعة بتسابيح وتشفعات هي في الوقت نفسه صلاة ولقاء مع الله المتجلي في يسوع المسيح، والموضوع في متناول المتقربين، ويشكل مضمونها تعليماً كاملاً.

إن لهذا التعليم بنية معينة، ونجد فيه العناصر الأساسية منذ الإعلان الأول للإنجيل. وتلخص الكلمة اليونانية: "كيريكما" أي "كرزة" والتي تعني "إعلان" وفيها نجد العناصر الأساسية للإيمان ملخصة حول الأقطاب الأربعة. ويعلن أحدها موت وقيامة يسوع وينقل لنا عبارات وحركات تأسيس الإفخارستيا. فلنقبل هذه النقاط الأربعة للكرزة كما هي مقدّمة لنا.

لقد أعلن الأنبياء وحضروا شعب إسرائيل لأحداث الخلاص

كان الأنبياء يعلنون مجيء المسيح باسم إله إسرائيل. أما وجه هذا المرسل فسوف يأخذ سمات مختلفة جداً تبعاً للعصور، فسوف يكون موسى جديداً أو ملكاً كبيراً على غرار داود أو نبياً كإيليا أو إرميا. وفي آخر العهد القديم سوف يشير يوحنا المعمدان إلى هذا المسيح على أنه حمل الله. وقد اقتبس من أشعيا (الفصل ٥٣) صورة عن

المسيح الآتي كعبد متألم حاملاً خطايا العالم ولا يشتكى على أحد.

وهكذا نجد أن هذه الوثائق تنقل إلينا مضمون هذا الوعظ الأولي المغرق في القدم والذي سيتوجه يوحنا المعمدان آخر الأنبياء. ويكفي أن نقرأ بعضاً من الآيات في عظة بطرس يوم العنصرة أو من عظة استيفانوس قبل استشهاده لكي نلمس هذا.

"أيها الإخوة، يجوز أن أقول لكم صراحة: إن أبانا داود مات ودُفن وقبره لا يزال اليوم عندنا. على أنه كان نبياً وعالماً بأن الله أقسم له يميناً ليقم ثمرًا من صلبه على عرشه" (أعمال ٢: ٢٩-٣٠).

يسوع هو الذي سيحقق الوعد المعلن

إنه ابن الله، الابن الوحيد للأب، إنه المسيح الذي فيه يجلّ روح الله القدوس. ولكن قيمة هذا التعليم الثاني وفعل الإيمان الذي يدعو إليه تكمن فيما يلي: إن يسوع هذا نفسه، ابن الله، قد عاش رسالته الخلاصية كرجل شبيه بكل البشر. وقد جعل هذا الإعلان المحير وجوه المسيح نسبية، وجعل معرفته أصعب على الكبار والعلماء وسادة اسرائيل لدرجة أنه وخلال سيره على دروب بلاده، فقد كانت تصرفاته وأقواله تحمل تعاليمًا جديدة فيما يتعلق بالحب وبالمؤسسات (الشريعة والهيكل والسبت). وكان الكتبة والفريسيون يعرفون الكتب المقدسة ويغذون رجاء مسيحياناً من طبيعة أخرى، سيكون عظيمًا وسيحرر اسرائيل (لوقا ٢٤: ٢١) وسيجعل منا شعباً مهاب الجانب ومحترماً.

وبالمقابل فإن الفقراء والمتواضعين قد عرفوا كيف يميّزون في عجائبه ومعجزاته والعلامات التي يجترحها (راجع أعمال ٢: ٢٢) تجسيداً رائعاً لحب الله ولمجده وكانوا يجدون أنه يعلم كمن له سلطان (لوقا ٤: ٣٢).

إن هذا الرجل الذي أمسكوه وصلبوه قد مات ولكن الله أقامه

ولهذه الأسباب مجتمعة لم يستطع البعض أن يقبلوه، فالذين يمسكون زمام السلطة والعلوم الدينية، ما عدا بعض الاستثناءات كنيقوديموس (انظر يوحنا ٧: ٥٠)، سيحاولون بكل ما لديهم من وسائل أن يقتلوه (مرقس ١٤: ١، يوحنا: ٥: ١٨). "ذاك الرجل الذي أسلم بقضاء الله وعلمه السابق فقتلتموه إذ علّقتموه على خشبة بأيدي الكافرين" (أعمال ٢: ٢٣). "لكن الله أقامه وأنقذه من أهوال الموت" (أعمال ٢: ٢٤). "فيسوع هذا قد أقامه الله، ونحن بأجمعنا شهود على ذلك" (أعمال ٢: ٣٢).

وهذا ليس كل شيء، فذاك الذي كان يدعو الله أباه (راجع يوحنا ٢: ١٨) كان مسكوناً أيضاً بالحضور السري للروح القدس، وبذلك فهو وريث كل تقليد للأنبياء، إنه روح الله نفسه الذي به يطرد الشياطين ويشفي المرضى (متى ١٢: ٢٨). إن هذا الروح نفسه الذي تلقاه من الأب قد أفاضه علينا أجمعين، وهذا ما ترون وتسمعون (أعمال ٥: ٣٣). هذا هو الأساس. وهذه هي النواة المركزية والتي لا تُدحض لهذا التقليد. وتعتبر هذه النقطة، النقطة الثالثة والأكثر أهمية.

يسوع المسيح سيأتي بالمجد

وينتهي الإعلان بوعده يفتح بنا على المستقبل، إلى نهاية الأزمنة، حيث سيأتي يسوع المسيح بالمجد لكي يدين كل البشر. ولكننا كثيراً ما ننسى هذا التشديد على النهاية الأخيرة.

لقد عاش المسيحيون في انتظار العودة الوشيكة للمسيح، حتى إنهم كان يظنون أنه

سيأتي خلال تجمع افخارستي. ويؤكد ذلك نص من تعليم الرسل من القرن الثاني، إذ إن الرواية التي يسوقها لنا هذا النص عن الإفخارستيا ينتهي بعبارة "ماراناتا!" أي تعال أيها الرب يسوع. وقد نقل لنا هذه العبارة قبلاً القديس بولس في (١ كورنثوس ٢٦: ٢١) وكتاب الرؤيا أيضاً (رؤيا ٢٢: ٢٠) وهي آخر كلمة من الكتاب المقدس وبالتالي آخر كلمة في الإعلان، وهي نفس ترنيمة الرجاء التي يرتهاها المجتمعون في الصلاة الافخارستية والتي تلي دعوة الكاهن "عظيم هو سر الإيمان...".

وإذا كانت عودة المسيح قد طالت، فإن الكنيسة قد نظرت بجد إلى ذهابه وحافظت على هذا الرجاء حياً. ولهذا وبعد ألفي عام، ما زالت توجّه أنظار المسيحيين نحو ذلك المجيء المعلن والمنتظر. إن كسر الخبز والمشاركة في جسد الرب ودمه على غرار كل الليتورجيا مطبوعة كلها بالطابع الأسراري و الانتقال في الوقت الذي تتوقع فيه ظهور المسيح بحسب تعبير البابا يوحنا بولس الثاني. وهنا يأخذ كسر الخبز والمشاركة في جسد المسيح ودمه معنى زاد الطريق الذي بقي علينا عبوره إلى يوم مجيء الرب. ماراناتا! تعال أيها الرب يسوع! إننا بانتظار مجيء يسوع المسيح.

إعلان (وعظ) وافخارستيا

بكلمة مختصرة، فإن الإعلان المبدئي للأخبار السارة متضمن كله في ديناميكية الإفخارستيا، إذ إنّ البنّى والكلمات التي تعرضها تشير إلى سر الإيمان عينه ولفهم ذلك يجدر بنا ألا نكتفي بعبارات التأسيس (الكلام الجوهري) وحدها ولا بالصلوات الليتورجية وحدها. فالدينامية المقصودة تبدأ بخدمة الكلمة (راجع رواية تلميذي عماوس) وتستمر في ليتورجيا الإفخارستيا مع الاشتراك بالتقادم وبالمدبة عبر تناول الخبز والخمر اللذين تحولوا إلى جسد المسيح ودمه. وتنتهي هذه الدينامية بنهاية

الاحتفال (القداس). ونلاحظ هنا نوعاً من التناوب بين دينامية الإفخارستيا وتلك الموجودة في النقاط الأربعة من الإعلان. ولنلاحظ كيف يظهر ذلك خلال الإفخارستيا.

١- ليتورجيا الكلمة (خدمة الكلمة).

تشكل ليتورجيا الكلمة في كل افخارستيا (قداس) استذكراً لعمل الله عبر التاريخ. وقد صار فعل الاستذكار هذا أطول في أيامنا، إذ هناك قراءتين أو ثلاث أو حتى سبع قراءات (كما في ليلة الفصح) مستقاة من الكتاب المقدس. وبحسب أعياد السنة وبحسب السنوات الثلاث للدورة الليتورجية تُقدّم لنا أحداث العهد الجديد كما أعلنت وكما تم التحضير لها في العهد القديم ويحتفى بتحققها الكامل في يسوع المسيح.

٢- ليتورجيا الإفخارستيا (التناول).

إن حقيقة سر تجسد ابن الله الإله الحق والإنسان الحق تقودنا إلى أبعد من حقيقة وجوده على الأرض. فجسده لا يتطابق فقط مع الجسد البيولوجي ليسوع الناصري المولود في العذراء والذي عاش في فلسطين أيام بيلاطس البنطي، بل نجده يتجلّى في تضامنٍ فريدٍ مع جسد كنسي ما زال يعرض علينا حتى اليوم عرض الخلاص.

إن هذا الجسد الكنسي هو الذي يحتفي بالحضور الحقيقي للخلاص من خلال أسرار الكنيسة، أي في تحقيقه الكامل في دينامية تربطنا بالرب من خلال تناول جسده ودمه. ومع ذلك فإنه من الواضح أن النصوص الرسولية الأكثر قدماً تتحدث عن كسر الخبز وليس عن خبز التقدمة الذي كان محصوراً أكله في الكهنة فقط (لوقا ٦ : ٤).

قد نفكر: إنها عبارات غامضة حقاً! ولكن علينا ألا نخشى التأمل في سر الإيمان. إنه

لعظيم! إنه يعلمنا ألا ننسى أثناء الاحتفال بالإفخارستيا أشكال جسد المسيح، التي هي علامة حضوره في اختلافها ووحدتها.

- الجسد التاريخي أو الفيزيولوجي ليسوع.

- الجسد الكنسي.

- الجسد الإفخارستي (الخبز والخمر).

فعندما تقدّم كلمات التقديس على الخبز والخمر خلال الصلاة الإفخارستية صلاتنا كفعل شكر، نفهم عندها كيف يمكن لشعب الله أن يكون ملتزماً بالاحتفال، وأنّ الأمر يتعلق بجماعة أكثر اتساعاً وسريّة من مجرد الاهتمام بالحياة الأخرى لجسد فردي، لدرجة أن القديس أوغسطينوس لم يتردد في أن يكتب: "اقبلوا ما هو أنتم، صيروا ما قبلتموه!" لقد استخدم آباء الكنيسة تعابير تتسم بالكثير من الشجاعة كما نقرأ لمكسيموس المعرّف: "إن الإفخارستيا تحوّل المؤمنين إلى ذاتها". وتوحي صورة الخبز إلى أنه كما أنّ الكثير من حبات القمح لا تشكل إلا رغيفاً واحداً، كذلك فإنّ الإفخارستيا تجعل من المسيحيين جسداً للمسيح. ويتحدث القديس أوغسطينوس أيضاً عن المسيحيين: "المسيح (الكنيسة) يبشّر بالمسيح". ويقول التقليد الذي سلّط لوباك الضوء عليه: "إن الإفخارستيا تكوّن الكنيسة والكنيسة تكوّن الإفخارستيا". إن الاحتفال بالعشاء الأخير استذكّاراً ليسوع يجعل منا أكثر من مجرد مشاهدين لأحداثٍ جرت في الماضي. إنها تجعل منا ممثلين معنيين بهذا الاحتفال لأنه يجعل ما عاشه يسوع خلاص العالم، معاصراً لكل منا، وإذا ما قمنا بهذا، فإننا سوف نتجنب الوقوع في تجربة تركيز اهتمامنا على جسد المسيح المقدّم لنا كمجرد علامة حقيقية على وجود

المسيح. إننا نحتفل بكل ما يعنيه هذا الرمز الذي هو علامة حقيقية على وجوده. وبنفس الوقت، فإنّ هذا الاحتفال يجعلنا نفتح على ما تجعلنا هذه العلامة ننتظره وذلك بإظهاره لنا. لأن العلامة تجعلنا ننتظر كمال الوحي عما كان قد تحقق لهذه الجماعة التي تشارك في جسد المسيح ودمه.

"فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يأتي" (١) كورنتوس ١١ : ٢٦).

٣- ليتورجيا الإرسال:

لا شك أن بولس كان من أفضل الذين شرحوا العلاقة بين كسر الخبز ومجيء المسيح في المجد. ومن هنا فهو يُظهر لنا أن الإفخارستيا هي في نفس الوقت توقّع وانتظار لهذه العودة. وتقيم الأنجيل الإزائية الثلاثة هذه العلاقة بين العشاء الأخير وبين وليمة آخر الزمان التي أعلن عنها أشعيا (أشعيا ٢٥ : ٦-...).

"الحق أقول لكم: لن أشرب بعد الآن من عصير الكرمة حتى ذلك اليوم الذي أشربه جديداً في ملكوت الله" (مرقس ١٤ : ٢٥).

إنّ الاحتفال بالإفخارستيا لا يكمل تاريخ الخلاص، فالإفخارستيا ليست منغلقة على ذاتها. لا شك أنها تعلن ما فعله الرب، ولكنها تزيد على ذلك أنها تشير إلى الاتمام النهائي يوم عودته: أي الخلاص لجموع كثيرة (أشعيا ٢٥).

لقد آن الأوان الآن للخروج إلى الساحات: "اذهبوا بسلام المسيح". لقد آن الأوان لأن نتابع الطريق، أي الذهاب إلى حيث يرسلنا الروح وأن نفتح عيوننا وأذاننا لاهمة

الملائكة، وأن نميّر بحدة البصر الخاصة بتلاميذ المسيح غمزات العين الكثيرة التي لا يكف الرب عن توجيهها إلينا من الصباح إلى المساء ليُظهر لنا حضوره.

وبدورنا وعلى غرار الاثنين والسبعين المرسلين في رسالة (لوقا ١٠ : ١-٢٠) سوف نشهد تحقيق الخلاص وسوف نرى الشيطان ساقطاً من السماء (آية ١٨) وانضمام الرجال والنساء إلى الجماعة (راجع أعمال ٢ : ٤٧).

وعلى غرار هؤلاء، ستكون لنا الطوبى لأننا "أعطينا أن نعائين ما عايناه" (لوقا ١٠ : ٢٣) ولكوننا مستعدين للقول مع تلميذي عماوس: "أما كان قلبنا متقدماً في صدورنا حين كان يحدثنا في الطريق ويشرح لنا الكتب؟" (لوقا ٢٤ : ٣٢) ومستعدين لتنفيذ أمر الروح القدس على غرار يوحنا في كتاب الرؤيا: "اكتب ما تراه في كتاب وابعث به إلى الكنائس السبع" (رؤيا ١ : ١١).

إذاً وفيما نحيا الإفخارستيا من جديد، بكلمات وحركات العشاء الأخير، سوف نعلن من خلال علامات هذا السر (الخبز والخمر) الوعد المقطوع: "أنا معكم إلى نهاية العالم" (متى ٢٨ : ٢٠). فبالإفخارستيا نكون قد ولجنا في الأزمنة الأخيرة راجين الظهور الممجّد للرب.

ونستخلص من كل هذا التأمل أنّ إعلان سر الإيمان المسيحي متضمّن منذ البدء في

إحياء هذا السر. ومن المناسب أن نلاحظ كم هذا جديد للكثير من المسيحيين الذين اعتادوا إحياء الإفخارستيا انطلاقاً من نصوص مكتوبة وطقوس مستوحاة من التقليد، والذين قلّمَا اعتادوا أن يقرأوا فيها سر الإيمان بكل أبعاده. إن هذا يُعتبر سيراً معكوساً للمسير الذي قام به التلاميذ الأولين. ففي الحقبة الرسولية كان الاحتفال في البداية هو التحامٌ لكل أحاسيس الإنسان، معبرٌ عنها بحركات ووضعيات وإجابات، لدرجة أننا نستطيع أن نقول في ختام كلٍ منها: "ذاك الذي رأيناه وسمعناه ولمسته أيدينا من كلمة الحياة. هذا ما نبشركم به" (١ يوحنا ١: ١). وتلتقي الشهادات لتسلط الضوء على هذه الحقيقة:

إن الكنيسة تؤمن كما تصلي

فعندما تصلي (تحتفل) فهي تعلن إيمانها

وعندما تعلن إيمانها فإنها تؤوّن سر الخلاص.

إنّ الليتورجيا وخاصة في ذبيحة الإفخارستيا التي بها "يتم عمل فدائنا" تساهم بشكل كبير فيما يعبر عنه المؤمنون بحياتهم مظهرين للآخرين سرّ المسيح، والطبيعة الأصلية للكنيسة الحقيقية، إذ يتعلق الأمر بها بوجه خاص لكي تكون وبنفس الوقت بشرية وإلهية،

منظورة وغنية بالحقائق الغير المنظورة،

متحمسة بالعمل ومنشغلة بالتأمل

حاضرة في العالم وغريبة عنه بنفس الوقت

ولكن بحيث أن ما فيها

من طابع بشري هو منظم وخاضع لما هو إلهي

وما هو منظور خاضع لغير المنظور

وما يتعلق بالعمل خاضع للتأمل.

وما هو حاضر اليوم يكون خاضعاً للمدينة المقبلة التي نبحث عنها. وهكذا وبما أن الليتورجيا تبني يومياً أولئك الذين يعيشون فيها لكي تجعل منهم هياكل مقدسة للرب ومساكناً لله في الروح ليبلغوا ملء القامة المناسبة لقامة المسيح، فهي تعمل على تقوية طاقاتهم بشكل مدهش لتجعلهم يعلنون المسيح، مظهرة بذلك الكنيسة للذين هم خارجها كراية مرفوعة أمام الأمم تجمع في ظلها أبناء الله المنتشرين، تجمعهم في الوحدة إلى أن يكون هناك رعية واحدة وراع واحد.

دستور الليتورجيا المقدسة

المجمع الفاتيكاني الثاني رقم (٢)

أسئلة للحوار:

١- نسألك بكل تواضع، نحن الذين اشتركنا في جسد الرب ودمه، أن يجمعنا روحك القدس ويوحدنا (الاستدعاء الثاني للصلاة الافخارستية رقم ١١). هل الإفخارستيا التي نحياها هي دعوة لنا أيضاً لكي نفهم من عبارة "اصنعوا هذا لذكري" خدمة الإخوة؟ قارنوا بين فحوى هذه الصلاة ومضمون الاستدعاء الأول قبل رواية التأسيس في نفس

الصلاة الإفخارستية.

٢- راجعوا مجمل هذه الدراسة واستخرجوا العلاقة بين الاحتفال الإفخارستي وبين العلاقة الأخوية في كل مرة تظهر فيها هذه العلاقة. وهل هذه طريقة لفهم العلاقة بين الإفخارستيا ووهب الذات في الحياة اليومية؟

٣- ما هي دروب التفسير التي علينا أن نستعملها لكيما نعيش الإفخارستيا ونفهم بشكل أفضل؟

صلاة لأجل اللقاء :

أشعيا ٢٥ : ١-٤ ، ٦-٩

أيها الرب أنت إلهي، أعظمك وأحمد اسمك، لأنك صنعت تدابير عجيبة، هي منذ القدم أمانةً وصدق. جعلت من المدينة كومةً، ومن البلدة الحصينة خراباً. قصر الغرباء لم يعد مدينة، فلا يُبنى للأبد. فلذلك يمدك الشعب القوي، وتتقّيك مدينة الأمم المخيفة، لأنك كنت حصناً للضعيف، حصناً للمسكين في ضيقه، معتصماً من السيل ظلاً من الحر، فإن روح الظالمين كان كالسيل المندفَع على الحائط.

وفي هذا الجبل سيضع رب القوات، لجميع الشعوب مأدبة مسمّات، مأدبة خمر معتّقة، مسمّات ذات مخ ونبيد ومرّوق. ويزيل من هذا الجبل، وجه الغطاء المغطي لجميع الشعوب، والحجاب المحجب جميع الأمم، ويزيل الموت على الدوام، ويمسح السيد الرب الدموع، عن جميع الوجوه، ويرفع عار شعبه عن كل الأرض، لأن الرب قد تكلم. فيقال في ذلك اليوم: هوذا إلهنا، الذي انتظرناه وهو يخلصنا، هوذا الرب الذي انتظرناه، فلنبتهج ونفرح بخلصه.

واجب المجالسة:

- ١- إيمان بالمسيح وإيمان بقريننا. هل نعتقد بأن قريننا موجود معنا ليقدم لنا المسيح؟ هل أشعر بأنني المسؤول الأول عن مسيرته الروحية، هو "ابن الله الذي أوثمنت عليه"؟
- ٢- ما هي العلاقة التي تربط الإفخارستيا بحياتنا اليومية: الحياة الزوجية، الحياة العائلية، الحياة الاجتماعية؟ هل نقدّم فيها ما عشنا خلال أسبوع؟ هل نستعد لذلك مسبقاً؟

قاعدة الحياة:

أختار قاعدة حياة تسمح لي بأن أستعد بشكل أفضل قبل كل افخارستيا.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
بركة الراعي	١
مقدمة	٣
توطئة	٤
الفصل الأول: أيام الفصح المقدسة الثلاثة	٧
الفصل الثاني: غسل الأرجل	٢٣
الفصل الثالث: عرس قانا	٣٩
الفصل الرابع: تكثير الخبز	٥٣
الفصل الخامس: عماوس والإرسال في مهمة	٧١

الفصل السادس: عبارات الإيمان التي تلقيناها	٨٣
الفهرس	٩٧

